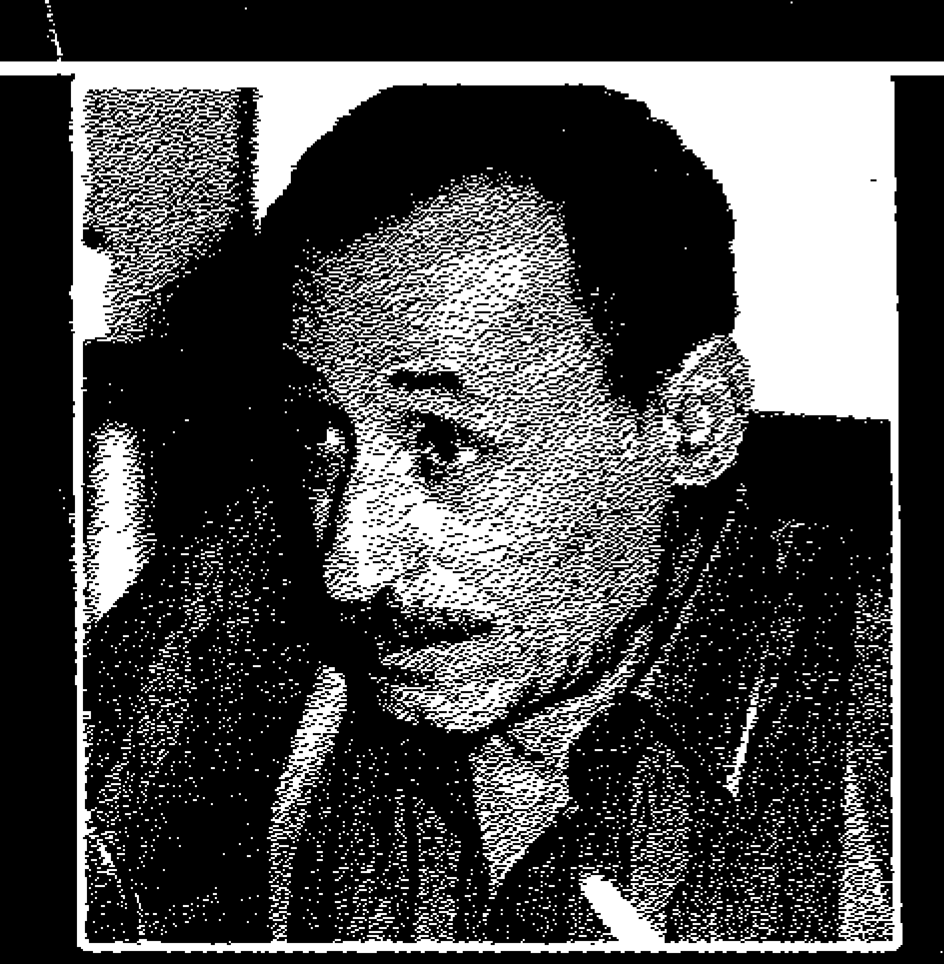


صالح مرسي

نساء في قطار الجاسوسية

ج ٢

الأعمال الكاملة



نساء فى قطار الجاسوسية

الناشـر : **مكتبة مدبـولى الصغير**

٤٥ شـارع البطـل أحمـد عبد العزيـز

تليفون : ٣٤٧٧٤١٠ ـ ٣٤٤٢٢٥٠

ميدان سفنكس ت : ٣٤٦٣٥٣٥

نساء في قطار الجاسوسية

رقـم الإيـداع : ٩٣٣١ / ٩٥

الطبعة الأولى : ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٦ م

المدير الفنى : **محمد الصباغ**

صالح مرسى

نساء في قطار الجاسوسية

جاسوسة فوق العادة
و .. القطة

الناشر: مدبولى الصغير

سياحة فكرية حول الموضوع

في السنو ات الأخيرة من السبعينات، التقيت ذات صيف بصديقي الأستاذ مصطفى نبيل رئيس تحرير «الهلال» في أحد شوارع لندن... كان اللقاء مصادفة، ولذلك، فلقد كانت له فرحة جرتنا إلى الحديث عن مصر والأحوال. ثم الثقافة والكتب.... وكنت وقتها أخطو خطواتي الأولى في كتابة قصص التجسس، وكان فيلم «الصعود إلى الهاوية» قد حقق نجاحاً لا بأس به!

وكان طبيعياً أن نتحدث عن الفيلم، والقصة الحقيقة، والخيال المضاف، والأبطال والقصص المماثلة. والأفلام الغربية التي عالجت مثل هذه الموضوعات.. ثم عن هذا العالم المثير الذي كنت أخطو إليه في حذر شديد، وتوجس له ما يبرره... وكان لابد وأن يجرنا الحديث عن الكتب التي صدرت في العالم عن التجسس والجواسيس، وكانت كثيرة ومتنوعة، وإن كان الذي صدر منها بالعربية نادراً ندرة تبعث على الدهشة والحزن معاً... وقادنا أيضاً، إلى واحدة من أكبر مكتبات لندن!

ما إن دلفنا إلى المكتبة، حتى سألت عن قسم «التجسس» فيها... وقادتني الموظفة إلى أحد الأركان حيث كانت الأرفف ترتفع إلى السقف حاملة العشرات، بل مئات الكتب التي تحمل من المعارف في هذا الحقل.

ولأسبوعين متتاليين ظللت أتردد - يومياً - على هذه المكتبة... كانت هناك كتب تتحدث عن التجسس والتجسس المضاد، عن بدايته ونشأته، عن فروعه وأقسامه، عن قوانينه وأصول الحركة فيه، عن تاريخه وعملياته وقصصه ومخاطره وأساليبه ومدارسه وغرائبه وبطولاته... و... و.... ووجدت نفسي غارقاً في محيط بدا لي وكأنه بلا شطآن... تحدوني الرغبة في المعرفة والبحث، وتحدني قدرتي المالية البالغة التواضع... وكنت، كلما خرجت من المكتبة أحمل كتابا أتساءل: إذا كان هذا النوع من المعرفة له هذا الكم الهائل من التنوع والخطورة، فلماذا تخلوا المكتبة العربية منه؟!!

ولقد ظل سؤالي بلا جواب شاف لسنوات طالت حتى يومنا هذا... ذلك أن حظ المكتبة العربية من هذا النوع من النشاط الإنساني لا يزال فقيراً فقراً مدقعاً... وإن كانت السوق قد أغرقت في الأعوام القليلة الماضية، ببعض الكتب التي اصطنعت اصطناعاً دون تمحيص أو دراسة لمجرد أن «الموضوع» أصبح موضة... وبالرغم من الأهمية البالغة والضرورية لمعرفتنا بهذا العلم وهذا العالم الخفي، لا لمجرد المعرفة فقط - وإن كان هذا في حد ذاته مهماً - ولكن لأن مصيرنا ومصير أمتنا في حاجة حقيقة إلى هذه المعرفة!!

فبداية... ليست مصر دولة صغرى بالمفهوم الشائع للكلمة... وإنما هي دولة «مركز» يمتد تأثيرها ويشمل منطقة من أكثر مناطق الأرض حساسية وخطورة. وما حرب الخليج ببعيدة!

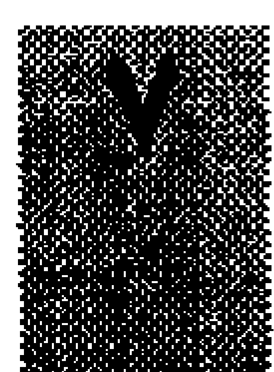
ولذلك، فلقد كنت - ولا زلت - أرى أن معرفة المواطن العربي عامة، والمصري خاصة، بهذا العالم. بأساليبه وتنوعها، بطرقه، وطرائقه... بالغة الأهمية، وهي معرفة كفيلة بأن تحمي الوطن من الكثير من المتاعب التي هو في غنى عنها!!

وعلى هذا... يخطىء من يظن أننا نكتب هذه القصص لمجرد التسلية، أو لما فيها من إثارة تفرضها طبيعة الموضوع... ذلك أن الجاسوسية فى عالم اليوم، أصبحت جزءاً لا يتجزأ من كل النشاطات الإنسانية فوق سطح هذا الكوكب... وهى فى تطورها يوماً بعد يوم، مع تطور العالم وأساليبه ووسائله وإدارته... ومع تشابك المصالح وامتدادها من دولة إلى أخرى ومن قارة إلى قارة... يزداد تأثيرها على هذا الكون بشكل يدعو إلى الدهشة، وإلى الحذر قبل الدهشة، وربما إلى الخوف قبل الاثنين معاً!

يكفى أن نعلم أن هناك وكالات للاستخبارات «قطاع خاص»... ، وكالات لا تتبع الدول، وإنما هى شركات أو مكاتب يملكها أفراد أو مجموعات يعملون لحساب من يدفع الثمن!!

هذه الوكالات، تضم ألوفاً مؤلفة من الرجال والنساء الذين تلقوا تدريبات على أرقى ما وصل إليه هذا العلم، وما وصلت إليه أساليبه وأدواته... والغريب في الأمر، أن الغالبية العظمى من هؤلاء العملاء، كانوا يتبعون هذا الجهاز أو ذاك من أجهزة المخابرات الشهيرة فى هذا الكون!!

ولقد كانت آخر أخبار هذا النوع من الوكالات أو مكاتب الاستخبارات، هو ذلك الخبر الذى طيرته وكالات الأنباء، كان هذا في عام ١٩٩٠ وأبرزته الصحف فى صفحاتها الأولى... عن تلك الوكالة التى كلفتها حكومة الكويت بتتبع النشاط الاقتصادى للرئيس العراقى صدام حسين، ومعرفة الشركات التى يساهم فيها بشخصه أو عن طريق أفراد عائلته أو معاونيه، وكشف حقيقة ثروته المخبوءة فى بنوك سويسرا أو فى أسهم الشركات الصناعية فى دول العالم... و... و... وعشرات التفاصيل التى لا تعنينا هنا... ولم تنس الصحف التى نشرت الخبر، أن تشير إلى أن هذه الوكالة



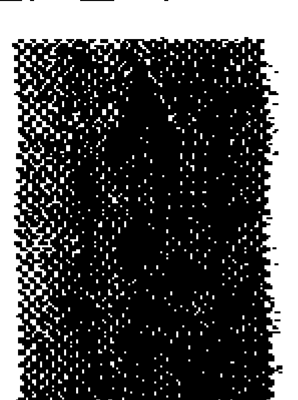
بالذات ، كانت، ولا تزال ، تقوم لحساب حكومة الفلبين، بمحاولة لحصر ثروة حاكم الفلبين السابق ماركوس وزوجته إيميلدا ، فى محاولة لاستعادة بعض من ثروة الفلبين المنهوبة!!

ولا يقتصر الأمر على هذا بطبيعة الحال... ذلك أن بعضاً من تلك المكاتب، قد تعمل لحساب شركات ضد شركات منافسة ـ ربما فى نفس الوطن ـ كما أنها تعمل لحساب أشخاص ضد أشخاص آخرين!

غير أننا إذا استطعنا أن ننظر إلى الأمر نظرة عامة وشاملة، سوف نكتشف أن علم المخابرات أصبح هو القاسم المشترك الأعظم فى كل نشاطات الكون الاقتصادية والصناعية والزراعية والتجارية والمالية... وبطبيعة الحال، النشاطات الحربية!

إن نظرة سريعة على عدد أجهزة المخابرات الرسمية فى عالم اليوم، سوف تنبئنا بأنها بعدد الدول فوق سطح الأرض، الدول الكبيرة والصغيرة على حد سواء، وهى أجهزة تتفاوت قدراتها بتفاوت قدرات الدول وعراقتها فى هذا النشاط....، لكن، يبدو أن تصور الحركة الداخلة والخارجة إلى ومن هذه الأجهزة، وكم العملاء الذين يعملون لحسابها أو ضدها ، وكم العملاء المزدوجين الذين يمارسون اللعب بالحياة والموت كما يمارسون التدخين، وكم القضايا التى تهم كل دولة على حدة... سوف يصيبنا بالدوار قطعاً، لأننا ببساطة شديدة، سوف نكتشف أن التجسس والتجسس المضاد ، هو طعام كل يوم بالنسبة لملايين البشر من كل جنسيات الأرض، وأنه بالتالى، يؤثر تأثيراً مباشراً على مجريات الأمور فوق سطح هذا الكوكب التعس!!

ومنذ بضعة أعوام، صدر كتاب للكاتب البريطانى «ديريك لامبيرت» بعنوان: «أنا..قال الجاسوس!»... يحكى فيه قصة بالغة



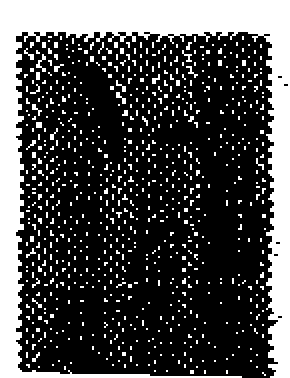
الإثارة، قصة، دون مبالغة، ترتعد لها الأوصال... قصة عشرين رجلاً هم أغنى أغنياء الأرض وأثرى أثرياء العالم - وغالبيتهم - كما يقول المؤلف، من اليهود!! - هؤلاء هم أصحاب الشركات العملاقة والأرصدة الفلكية التى تتحكم فى مسارات الاقتصاد العالمى شرقه وغربه... هؤلاء العشرون رجلاً يجتمعون فى كل عام مرة واحدة فى قلعة بهولندا اسمها: «بيلدر بيرج»... يجتمعون لمدة أسبوعين، كى يحددوا للاقتصاد العالمى مساره لعام قادم!!

وكتاب «أنا... قال الجاسوس»، زاخر بمعلومات ليست مثيرة فقط، وإنما مخيفة أيضاً...إن بعض العمليات التى يقوم بها جواسيس هذه المجموعة المنتشرة فى كل دول العالم بلا استثناء، تبدو وكأنها ضرب من الخيال الجامح، والمخاطر التى يتعرض لها هذا الجاسوس أو ذاك للحصول على معلوماته من هنا أو من هناك، تبدو وكأنها نوع من مبالغات أفلام چيمس بوند... لكنها فى النهاية، قد توفر الملايين، أو تتسبب فى خسارة البلايين، وقد تقيم حكومة، أو تشعل ثورة!!

فهؤلاء الرجال العشرون الذين يجتمعون مرة فى كل عام كى يقدروا مصير الكون لعام قادم، لا يصدرون قراراتهم من فراغ أو بناء على تقارير المحاسبين فى شركاتهم العملاقة... وإنما يصدرون هذه القرارات، بناء على معلومات لابد وأن تكون بالغة الدقة عن كل ما يمت إلى الاقتصاد العالمى... ابتداءً من أصغر منجم للماس فى قرية نائية من قرى الكنغو، إلى أكبر شركات السلاح فى العالم!!!

إن مثل هذه المعلومات التى تشمل الأشخاص والجماعات والأحزاب والقوى السياسية هنا أو هناك، تحتاج بالقطع إلى جيش من المخبرين السريين، جيش لابد وأن ينظمه جهاز بالغ القوة، بالغ الدقة، بالغ التأثير!

فمن الذى يدير هذا الجهاز؟!
من الذى يحرك رجاله ونساءه وعملاءه؟!
من يصدر الأوامر فيه؟!.. ما هى وسائل اتصالاته؟!
وعشرات، بل مئات من الأسئلة التى تطرح نفسها وقد يجد بعضها إجابات وقد لا يكون للبعض إجابات!
إن قراءة سريعة لكتاب السيد لامبيرت سوف تقودنا، بالقطع، إلى تفسير للعديد مما يحدث فوق سطح الكرة الأرضية، بل لا أبالغ إن قلت، إلى تفسير كل ما يحدث فى العالم الذى نعيشه اليوم!!
ثم...
إذا كان الأمر كذلك، وإذا كان هذا العالم قد وصل إلى ما وصل إليه الآن من تقدم، فلقد يتساءل سائل: لماذا إذن تلك القصص التى نقدمها عن عمليات تجسس تمت فى منتصف هذا القرن، وقد عفا عليها الزمان؟!
والجواب بالغ البساطة ...ذلك أن التطور الذى يحدث، إنما يحدث فى الأساليب والمعدات والوسائل... أما المبادئ والأسس، فهى ثابتة لا تتغير، هى هى نفس المبادئ والأسس التى أثبتتها التجربة الإنسانية منذ أن كان الإنسان على سطح هذا الكوكب!
على سبيل المثال: فإن قصة السيدة«ارمجارد شميدت» والتى وقعت أحداثها فى عام ١٩٥٨، تعتبر من حيث الفكرة والإعداد والتدريب والتنفيذ، مثالية بكل ما تحمل الكلمة من معنى، بل وقابلة للتطبيق حتى الآن، رغم بعد الشقة وبعد الزمن واختلاف الوسائل... ذلك أنه بالرغم من الأقمار الصناعية والكاميرات البالغة الحساسية، ووسائل التصنت الجهنمية، لازال الجاسوس « الإنسان» هو الذروة، وهو المحك!



ثم...

إذا كانت برلين الغربية، هى مسرح عملية فراو شميدت، فلقد تمت هذه العملية عندما كانت ألمانيا مقسمة إلى شرقية وغربية، تمت وقت أن كان حلم الوحدة الألمانية من المستحيلات... مما يدفع الإنسان الآن، وقد توحدت ألمانيا، إلى أن يحبس أنفاسه انتظاراً لما سوف يتفجر من مفاجآت.

ذلك أن الصراع بين ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية، كان فى لبه هو الصراع بين الشرق والغرب، ولقد ظل هذا الصراع محتدماً لقرابة نصف قرن من الزمان... ولذلك، فلقد كان أكثر ما لفت أنظار المراقبين عندما وقعت وثيقة توحيد ألمانيا، هو هذا البند الذى ينص على عدم الاطلاع على الوثائق السرية فى ألمانيا الشرقية، إلا بعد مضى خمس سنوات!!

ولقد توقف الكثيرون أمام هذا البند، منتظرين ما سوف تسفر عنه الأيام من غرائب وعجائب ومفارقات بل وفضائح سوف تزلزل الكثيرين... لأن الصراع بين شطرى الوطن الواحد، كان، فى بعض الأحيان، يأخذ أشكالاً بالغة الحدة... بل إن بعض العمليات السرية التى تمت، كادت تحدث أزمات شديدة العنف بين المعسكرين الشرقى والغربى... ولعل أهم ما يتبادر إلى الذهن عن ذلك الصراع السرى بين الألمانيتين... هى تلك الضربة التى بدت قاصمة، والتى وجهتها ألمانيا الشرقية الى ألمانيا الغربية فى صيف عام ١٩٨٥...

فى هذا الصيف، فوجئ العالم بإعلان يصدر فى ألمانيا الغربية، يتحدث عن اختفاء واحد من أهم رجال المخابرات فيها، والرجل المسئول عن مكافحة التجسس فى واحد من أقوى أجهزة المخابرات فى العالم، وهو الهر: «هانز جواخيم تيدكه»!

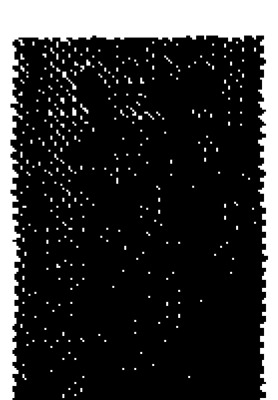
كان الهر تيدكه هو رئيس هيئة الأمن القومى فى ألمانيا الغربية، أى الرجل المسئول عن حماية وطنه من الجواسيس ومطاردتهم أينما كانوا... ولذلك، فلقد بدا الخبر وقتها مذهلاً بكل المقاييس، ولقد أحدثت إذاعة الخبر هزة عنيفة لا فى ألمانيا الغربية وحدها، ولكن فى المعسكر الغربى كله ... ذلك أن أجهزة المخابرات فى الغرب، كما كانت فى الشرق ، كانت على اتصال وثيق وتعاون لا مفر منه !

ومما زاد فى عنف الصدمة، أن الكثيرين توقعوا أن يكون الهر تيدكة قد لجأ إلى ألمانيا الشرقية وهو يحمل بالقطع أسراراً على جانب كبير من الأهمية!

ولم يكن اختفاء السيد تيدكة هو الأول من نوعه فى ألمانياالغربية، ففى نفس الصيف اختفت فجأة سيدة كانت تدعى « سونيا لوينبرج »، وكانت تعمل مديرة لمكتب وزير الاقتصاد فى ألمانيا الغربية وقتها ، وهو فراو «مارتين بانجمان »... وهى سيدة قوية البناء، بيضاء الشعر، فى الستين من عمرها ... وكانت بحكم عملها تطّلع على الكثير جداً من الأسرار الاقتصادية التى لاتخص ألمانيا الغربية وحدها، ولكن تخص أيضاً كل من تتعاون معه من دول الغرب!

انفجر خبر اختفاء مديرة مكتب وزير الاقتصاد، وتناولته الصحف ـ كالعادة ـ بالتعليق والتحليل، وأثيرت حوله ضجة هائلة، وطرحت عشرات الأسئلة ... وكان لابد من البحث عن أهل هذه السيدة، أين ولدت؟! ... وأين عاشت ؟! ... وكيف وصلت إلى مركزها هذا ؟! ...و... و...

ووصل البحث إلى أن اسم « سونيا لوينبرج » الذى كانت تحمله هذه السيدة، هو لمصففة شعر هاجرت إلى كندا فى منتصف الستينات، وأن أخبارها، منذ ذلك الحين، اختفت تماماً... وكان لابد من البحث فى كندا ،



لكنه لم يسفر عن شئ، وبدا الأمر وكأن سونيا لوينبرج الحقيقية قد تبخرت. . . ومما زاد من تعقيد الأمور، أن كل زبونات مصففة الشعر هذه، أجمعن على أن أوصاف سونيا لوينبرج الحقيقية، بعيدة كل البعد عن أوصاف تلك التى عملت كمديرة لمكتب وزير الاقتصاد! فما الذى حدث؟!

وأين اختفت مصففة الشعر وكيف ؟!

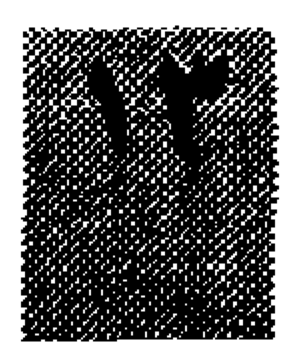
ومتى انتحلت هذه السيدة الغامضة التى عملت لسنوات مديرة لمكتب الهر بانجمان هذا الاسم . . . ومن الذى صنع لها تاريخها المزيف هذا ؟! . . وما هى الوظائف التى شغلتها ؟! . . . وهل شغلتها باسم « سونيا لوينبرج » أم بأسماء أخرى ؟! . . . وكيف سارت فى وظائفها، وخلال عشرين عاماً، إلى أن وصلت إلى وظيفتها الأخيرة ؟!

وسواء وجد الباحثون إجابات كل هذه الأسئلة أم لم يجدوا، فلقد أيقن الجميع أن تلك السيدة، انتقلت بكل ما وصل إلى يدها من وثائق ومعلومات، إلى الشطر الآخر من ألمانيا!!

وقد أعلن هذا كله فى ألمانيا الغربية دون أن يصدر تصريح واحد من ألمانيا الشرقية التى لزمت الصمت تماماً وكأن الأمر لا يعنيها . . . ولم يكن هذا غريباً، ذلك أن أجهزة المخابرات فى المعسكر الشرقى ، دأبت على استعمال الصمت البليغ إزاء مثل هذه القضايا.

ولذلك ، فلقد كانت المفاجأة مذهلة تماماً، عندما أعلنت ألمانيا الشرقية ـ عقب اختفاء السيد هانز جواخيم تيدكه ـ أن رجل المخابرات الألمانى الغربى، قد لجأ إليها بالفعل !

كان هذا التصريح هو الأول من نوعه ، وبدا وكأنه نوع من التحدى السافر، لالمخابرات ألمانيا الغربية فقط، بل للمعسكر الغربى كله . . .ولم



تكتف ألمانيا الشرقية بتصريحها هذا الذى صنع هزة عنيفة فى أوساط المخابرات الغربية، بل أردفت التصريح بتصريح آخر أعلنت فيه ، أنه فى خلال الثمانية عشر شهراً التى سبقت لجوء السيد تيدكه إليها ، ألقت القبض على ١٦٨ جاسوساً كانوا يعملون لحساب الغرب فى أراضيها!!!

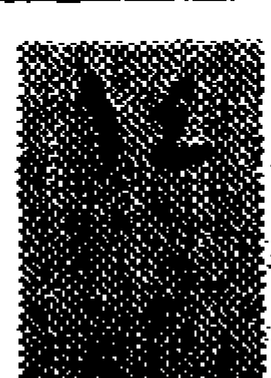
ووصل الأمر فى خريف ١٩٨٥ إلى ذروة تنذر بخطر حقيقى، كان التحدى سافراً، وكانت اللطمة قاسية... كما كان طبيعياً أن ينشغل الرأى العام الغربى بالقضية التى كانت تحمل كل مقومات الإثارة ... وبدا الأمر وقتها ، وكأن الشرق يكيل اللطمات إلى الغرب دون أن يستطيع هذا أن يرد عليه... واختلفت آراء المعلقين وتحليلاتهم ... فمنهم من رأى أن الغرب لا يملك حيال لطمة مثل هذه، إلا أن يلزم الصمت ، وأن يسلم بالهزيمة... ومنهم من رأى أن الغرب لا يستطيع إلا أن يرد بضربة مماثلة !

وقد كان ...

رد الغرب بلطمة مماثلة... لكن الرد لم يأت ، كما كان منتظراً، من ألمانيا الغربية صاحبة الشأن ... بل جاء من بريطانيا !

فبعد أسابيع قليلة، أعلنت الحكومة البريطانية أن القنصل السوفيتى فى لندن السيد «أوليج جورد فيسكى» قد طلب حق اللجوء السياسى إلى المملكة المتحدة! ... ولم يتوقف الأمرعند هذا الحد، فلقد أردف المسئول الذى أدلى بالتصريح، أن السيد « جورد فيسكى » كان هو المسئول عن أعمال المخابرات السوفيتية فى بريطانيا!

كان لمثل هذا الرد معناه ومغزاه ... كان معناه بوضوح أن المعسكر الغربى يرد على المعسكر الشرقى، وأن القضية ــ قضية الهر تيدكة ـ لا تخص ألمانيا فقط، وإنما هى تخص الغرب كله ...



ولقد كانت اللطمة عنيفة دون شك، وبلغت الإثارة ذروتها عندما أعلنت الحكومة البريطانية، عن طرد ٢٥ من رعايا الاتحاد السوفيتى، منهم بعض الدبلوماسيين... وكانت حجة الطرد هى: أنهم يمارسون فى المملكة المتحدة، أعمال التجسس!

وقتها، كان الرئيس السوفيتى ميخائيل جورباتشوف، لا يزال حديث عهد بالسلطة... ولقد علق البعض على عنف الرد الغربى من خلال تصرف الحكومة البريطانية، بأنه نوع من الإنذار أو لىّ الذراع للرئيس الجديد ... وقبل أن يلتقط المراقبون أنفاسهم، فوجئ العالم، على غير توقع بالمرة... بالاتحاد السوفيتى يرد رداً صارماً وحاسماً، وإذا به يطرد ٢٥ من رعايا بريطانيا فى موسكو، ومنهم بعض الدبلوماسيين، لكنه ـ إمعاناً فى التحدى ـ لم يعلن سبباً لطردهم!!

وصل الأمر فى ذلك الصيف الساخن إلى ذروة مثيرة بحق ... فها هو كل معسكر يعلن عن اختراقه لمخابرات المعسكر المضاد، ولقد كان هذا فى حد ذاته، نذيراً بالكثير من الخطوات... ولقد صنع رد الاتحاد السوفيتى ضجيجاً رهيباً فى صحافة الغرب. صنع ضجيجاً غطى على خبر كان مقدراً له أن يصنع ضجيجاً من نوع آخر ... فلقد طيرت وكالات الأنباء، من الأرجنتين، خبراً مؤداه، ان أحد الدبلوماسيين فى السفارة السوفيتية فى الأرجنتين، قد طلب حق اللجوء السياسى إلى ألمانيا الغربية، بحجة خوفه من أن يكشف تيدكة طبيعة نشاطه!

بدا وكأن حلبة الصراع تمتد من ألمانيا إلى بريطانيا إلى الأرجنتين ... وحبس العالم أنفاسه، فلقد كان الموقف مثيراً للقلق خاصة بعد رد الاتحاد السوفيتى غير المتوقع ... ويبدو أن الغرب كان مصمماً على الرد،

ويعنف . . . فلقد أعلنت السيدة مارجريت تاتشر ـ رئيسة وزراء بريطانيا وقتها! ـ عن طرد ستة دبلوماسيين كانوا يعملون في السفارة السوفيتية في لندن . . . وتوقع المراقبون أن الأمر لابد له من التوقف عند هذه النقطة . . . إن التصعيد في مثل هذه الأمور قد يجر الدول إلى ما لا تحمد عقباه . . . توقع الكثيرون إذن أن يعود الاتحاد السوفيتي إلى أسلوبه القديم بالتزامه الصمت ، لكن هذا لم يحدث، فلقد أعلن السوفيت عن طرد ستة من الدبلوماسيين الإنجليز الذين يعملون في سفارة بريطانيا في موسكو دون إبداء الأسباب!

في ذلك اليوم على وجه التحديد، كانت السيدة مارجريت تاتشر في زيارة رسمية لمصر . . . وكانت وقت إذاعة البيان السوفيتي ، في زيارة سياحية لمدينة الأقصر . . . واندفع المراسلون الأجانب يحاصرونها بعشرات الأسئلة . . . كان التوتر في العلاقات قد وصل إلى ذروة بالغة الخطر . . . لكن المرأة الحديدية صرحت ، في اقتضاب شديد، رداً على كل الأسئلة، بجملة واحدة . . . قالت :

« لابد من وضع حد لهذا الأمر!! » .

وهكذا وضعت بريطانيا حداً لذلك التصعيد، وجاءت جملة رئيسة الوزراء، وكأنها إيذاناً بانتهاء تلك المباراة الخطرة في الأوليمبياد الاستخبارية !

***

وهكذا هذه هي آخر المباريات المثيرة والمعلنة بين ألمانيا وألمانيا، أو بين الشرق والغرب.

ولكن . . . كيف كانت البداية ؟!

كانت البداية بالقطع ، في نفس اللحظة التي وضعت فيها الحرب العالمية

الثانية أوزارها، وعندما كرس تقسيم ألمانيا إلى شرقية وغربية !

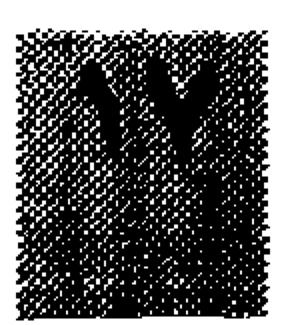
هنالك، فى منتصف الأربعينات من هذا القرن، كانت البداية.

فكيف جرت قصص التجسس بين الدولتين ؟!

وهل كان الاختلاف كبيراً بين ما كان يحدث فى الخمسينات، وما حدث فى الثمانينات؟!

إننا نترك الرد لتلك القصة البالغة الإثارة، التى قامت بها جاسوسة فوق العادة. كانت تحمل اسم «ارمجارد شميدت »، استطاعت أن تعبر سور برلين من الشرق إلى الغرب، وأن تقتحم مبنى المخابرات الأمريكية فيها، كى تصبح سكرتيرة وعشيقة وموضع ثقة رجل من أهم رجال هذا الجهاز فى ألمانيا ... رجل كان سجله نظيفاً إلى حد جعل الشك فيه وفى قدراته غير وارد ... لكن تلك الجاسوسة البالغة الجمال، الفذة القدرات ، استطاعت أن توقع به ، وأن تحقق نصراً لا شك فيه، كما حققت ضرراً بالغاً بالاستخبارات الأمريكية، مما دفع القاضى الذى حوكمت أمامه، لأن يحكم عليها بالسجن خمسة أعوام، رغم أن الادعاء فى القضية، كان يطالب بسجنها ثلاثة أعوام فقط .

صالح مرسى





جاسوسة فوق العادة

لا أحد يعرف على وجه الدقة، متى بدأت «ارمجارد شميدت» عملها مع مخابرات ألمانيا الشرقية ... ذلك أن المعلومات التى أدلت بها هذه السيدة من ناحية، أو تلك التى استطاعت مخابرات الولايات المتحدة أن تجمعها عنها من ناحية أخرى ، كانت معقدة ومتشابكة ومتضاربة، بحيث يصعب على المحقق أن يستخلص الحقيقة الكاملة عنها... غير أن الثابت ، أن هذه السيدة التى لم تكن قد تعدت الثلاثين من عمرها عندما قامت بمهمتها تلك البالغة الجرأة ... كانت تتمتع بقامة فارهة، وجسد متناسق، وشعر ينسدل فوق كتفيها فى نعومة كانت تضفى على الوجه سحراً من نوع خاص ... ولقد أجمع كل الذين عرفوها أو تعاملوا معها، أنها كانت قريبة الشبه إلى حد كبير من الممثلة الأمريكية الألمانية الأصل مارلين ديتريش ... وأنها كانت تتمتع، إلى جوار ذكائها الحاد، برغبة عارمة فى الحياة المنعمة بعيداً عن شظف حياة مواطنيها فى ألمانيا الغربية !

فوق ذلك كله، كانت ارمجارد شميدت كعميلة محترفة فى جهاز مخابرات كانت له صولاته وجولاته... واحدة من هذا النوع من العملاء الذى يتقن اللعبة ويديرها ببراعة الساحر الذى ينام فوق المسامير مستشعراً فى نومه هذا لذة غامضة تبدو للمراقب مثيرة وغريبة فى نفس الوقت ...ذلك أن أحداً لم يعرف عن ارمجارد إيمانها بالشيوعية، أو ولاءها لها

.. كل ما أمكن أن يقال ـ من واقع أقوالها وتصرفاتها ـ أنها وجدت أن العمل مع المخابرات، طريقاً سهلاً ويحقق لها ما كانت تصبو إليه من كماليات وأشياء أخرى لم يكن في استطاعة المواطن العادي في ألمانيا الشرقية أن يحصل عليها ... وأنها بعد ذلك، أصبحت ترساً في آلة جهنمية لا تستطيع منها فكاكاً، بل ربما لاتريد منها فكاكاً ... فكان لابد لها ـ كي تستمر ـ أن تتقن اللعبة، وأن تتميز فيها، كي تحتفظ بما كانت وكان لابد لها ـ والأمر كذلك ـ أن تتميز فعلاً، وأن تبرع في المهمات التي كلفت بها ... وكان لابد لها أيضاً أن تلفت أنظار الرؤساء الذين وجدوا ذات يوم، أنها تصلح لمهمة من أخطر المهام التي يكلف بها عميل ... مهمة اختراق جهاز مخابرات دولة معادية !! .

لذلك .. فلقد كان أمراً طبيعياً أن يأتيها تكليف بالاستعداد للسفر إلى موسكو في الشهور الأولى من عام ١٩٥٨، لتلقي دورة تدريبية هناك!

... وهكذا طارت ارمجارد شميدت من برلين إلى موسكو ذات يوم ، لتنتقل ـ في سرية كاملة ـ من المطار إلى حيث بقيت لثلاثة أشهر كاملة في إحدى مدارس المخابرات السوفيتية!

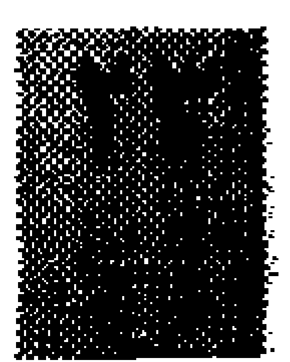
والذين يعرفون شيئاً عن المخابرات السوفيتية ـ كي . جي . بي ـ يعرفون جيداً طبيعة العمل بها، وتلك الدقة المتناهية التي يلتزم بها رجال هذه المدارس من حيث الإعداد والتدريب والانضباط الصارم الذي لا يدع كبيرة ولا صغيرة في هذا الفن أو ذاك من فنون التجسس، إلا وقتلوها بحثاً ... وهي ـ أي المخابرات السوفيتية ـ في بعض الكتب التي تتحدث

عنها ـ مقسمة إلى أقسام متباعدة ، يبدو كل قسم منها وكأنه مدينة قائمة بذاتها . . . مدينة لها قوانينها وأسلوب الحياة فيها . . . بحيث إذا ما تخرج منها عميل أو عميلة ، كان جاهزاً تماماً لأداء مهمته على الوجه الأكمل مهما كانت الصعاب التى ستواجهه!

وعلى كل . . . فلم تكن ارمجارد تعرف طبيعة تلك المهمة التى من أجلها أرسلت إلى تلك الدورة التدريبية فى العاصمة السوفيتية، ولم يكن لها أن تسأل . . . وهى ، منذ اليوم الأول لوصولها، وجدت نفسها أمام برنامج حافل ومكثف، لم يكن يترك لها فى الأربع وعشرين ساعة من كل يوم ، سوى الساعات اللازمة للنوم وتناول الطعام!

وجدت ارمجارد نفسها أمام عدد لا بأس به من المهارات، كان عليها أن تتقنها إتقاناً تاماً . . . كما وجدت نفسها أمام مرحلة كانت تتطلب منها انتباهاً حاداً لكل التفاصيل مهما صغر شأنها . . . وفوق هذا ، وجدت نفسها أمام مرحلة تحتاج فيها إلى قوة أعصاب وثبات تصرف مهما كانت حدة الموقف الذى تتعرض له!

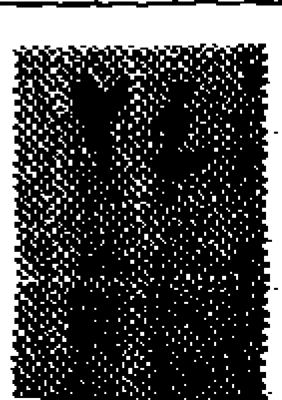
وعلى سبيل المثال، كان عليها أن تتدرب على استعمال كاميرا بالغة الصغر، مثبتة فى الخاتم الذى يزين أحد أصابع يديها . . . ولم تكن المشكلة فى استعمال الكاميرا بقدر ما كانت فى الحركة وسرعتها وثبات يدها أثناء التصوير . . . وكان هناك تدريب على نوع آخر من الكاميرات مثبتة فى إصبع لأحمر الشفاه تستطيع التقاط صورة صغيرة إلى حد أنها تصلح لأن تكون نقطة أو فصلة فى إحدى صفحات كتاب، أى كتاب بأية لغة . . .



أما التدريب على شفرات جديدة للرسائل ، فهذه كانت عملية ذهنية مضنية بحق . . . كانت العملية معقدة إلى حد يحتاج إلى يقظة ذهنية تجعل من المستحيل عليها أن تنسى خطوة واحدة من خطوات حل الشفرة أو الكتابة بها!

وعندما بدأت ارمجارد شميدت دورة تدريبية على مقاومة جهاز كشف الكذب، أدركت ـ وهى محترفة وليس هاوية ـ أن المهمة بالقطع سوف تكون فى الجانب الآخر من ألمانيا، وربما فى برلين الغربية حيث يصل الصراع هناك بين الأجهزة إلى ذرى ظلت مشتعلة لسنوات وسنوات بين مخابرات الشرق والغرب. . . ولقد كانت أجهزة كشف الكذب فى ذلك الوقت، لاتزال فى أطوارها الأولى، وكانت وسائل مقاومتها تعتمد على قدرات العميل الخاصة . . . لكن الذى لا شك فيه، أن ارمجارد أحست بسعادة فائقة عندما بدأت التدريب على أن تقوم بتنويم نفسها مغناطيسياً . . . هذا التنويم الذى يطلق عليه الخبراء اسم « التنويم الذاتى »، والذى يستطيع من يتدرب عليه، ان يقوم بتنويم نفسه مغناطيسياً قبل جلوسه إلى جهاز كشف الكذب . . . بحيث لا ينطق كلمة واحدة غير مرغوب فيها، وبحيث يستطيع التحكم فى دقات قلبه وتوتراته وجعلها جميعاً فى حالة طبيعية تماماً، مما يؤكد صدق إجاباته على الأسئلة التى توجه إليه من خبراء دربوا تدريباً عالياً. وبأسلوب علمى كان يتطور يوماً بعد يوم مع تطور الجهاز نفسه سواء فى الاتحاد السوفيتى أم فى دول الغرب !

كان التدريب دون شك شاقاً إلى أقصى درجة، وكانت الوسائل التى

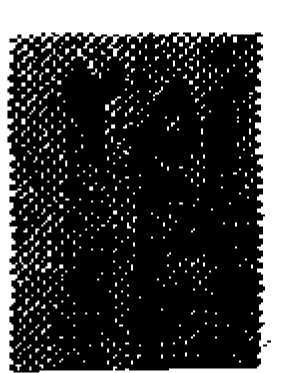


دربت عليها ارمجارد كثيرة ومتعددة كما كان يؤكد لها ، يوماً بعد يوم، أنها سوف تقوم بمهمة خطيرة، وليست واحدة من تلكَ المهمات التى كانت تقوم بها فى برلين الشرقية . . . ولقد أثبتت لها الأيام صدق حدسها ، فما إن انتهت من تلك المرحلة، حتى انتقلت إلى مرحلة أخرى بالغة الغرابة والمتعة فى نفس الوقت .

كانت هذه المرحلة مقسمة إلى جزئين ، الجزء الأول منها كان عليها أن تدرس فيه كل شئ عن الجيش الأمريكى، وبخاصة تلك القوات الموجودة فى ألمانيا الغربية. . . ثم دراسة كل ما يمت إلى قوات حلف الأطلنطى، وتوزيعها ونوع الأسلحة المستخدمة فيها وقوادها ورجال مخابراتها . . .

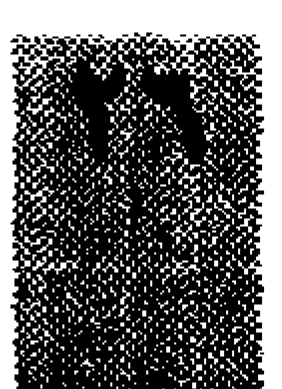
إلى هنا ، كان اليقين قد أصبح راسخاً لديها بأن العملية التى كانت تؤهل للقيام بها سوف تكون ، لا فى ألمانيا الغربية فقط، ولكن مع الأمريكيين على وجه التحديد. . . وأنه سيصبح عليها أن تتعامل، فى الجانب الآخر، مع العقول الأمريكية والثراء والبذخ والحصول على كل ماكانت تتوق إليه . . . ولقد اجتاحتها السعادة دون شك. سعادة بلغت ذروتها عندما انتقلت إلى الجزء الثانى من هذه المرحلة، والذى كان يركز على شخصية «الرجل الأمريكى» نفسه !

ذلك أن الدعاية الأمريكية، مع تلك المبالغات التى ينقل بها البعض نمط الحياة فى الولايات المتحدة، أو فى الغرب عموماً، كانت تصنع لدى شعوب الكتلة الشرقية نوعاً من الشوق والتطلع كان يصل فى بعض الأحيان إلى حد المرض . . . وبالنسبة لشخصية مثل شخصية هذه السيدة البارعة



الجمال، فلقد كان الأمر أكثر من ممتع، خاصة عندما اكتشفت أن الجزء الثانى من المرحلة هوالتعرف ودراسة شخصية الرجل الأمريكى مهما كان مسقط رأسه!

ولأن الشعب الأمريكى ـ شعب الولايات المتحدة ـ مكون من أصول متعددة أوربية وغير أوربية. فهو أيضاً مقسم إلى مناطق، فالرجل الآتى من الغرب الأمريكى الشهير، يختلف فى طباعه وأسلوب حياته ولهجته عن هذا الآتى من الجنوب حيث مزارع القطن والعبيد السود، كما أن هؤلاء مختلفون عن شعوب الشمال الأنجلوسكسونية والتى تتمتع بقدر ملحوظ من الثقافة والتحضر والارتباط الخفى بالقارة الأم ـ أوربا ـ خاصة إنجلترا ... وكل هؤلاء يختلفون فى العديد من الطباع والتفاصيل عن هؤلاء القادمين من الشرق حيث نيويورك وما يحيط بها ... وهكذا كان على ارمجارد شميدت أن تعرف كيف توقع « رجلاً أمريكياً » من أى مكان بمجرد لقائها به ومعرفتها مسقط رأسه ... ومن أجل هذا، وعدا المحاضرات والمعلومات البالغة الجفاف، كان عليها أن تجلس فى قاعة صغيرة للعرض السينمائى، وأن تستمتع لأيام بعد أيام، بمشاهدة عدد هائل من أفلام السينما الأمريكية ... ولقد كانت هذه المرحلة دون شك ممتعة للغاية، فلقد كانت مشاهدة هذه الأفلام فى حد ذاتها متعة... وحتى تلك المناقشات التى كانت تعقد مع متخصصين فى دراسة الشخصية الأمريكية، كانت تفتح لها أبواباً ما كانت تخطر لها على بال ... والغريب ، أن التركيز فى دراسة هذه الشخصية كان يدور حول وسائل الغزل، وسبل الإيقاع بالرجل الأمريكى!

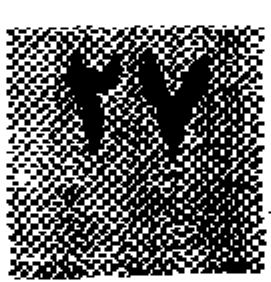


حتى إذا انتهت هذه المرحلة، كانت ارمجارد شميدت، جاهزة تماماً لأداء مهمتها ... لكن هذا ما كان يحدث دون أن توضع هذه السيدة تحت اختبارات بالغة الدقة، وربما بالغة القسوة فى آن ... إن كثرة الأساليب وتفرع المعارف كان كثيراً ومكثفاً ... غير أنها فى النهاية أثبتت تفوقاً مذهلاً، وقدرة غير عادية على الاستيعاب واجتياز المآزق والقيام بالمهام... وهكذا، أصبحت جاهزة للعودة إلى وطنها ، وكان أن اتخذوا لها اسماً كوديا هو : « العملية استيفانى »!

***

عادت ارمجارد شميدت إلى برلين الشرقية وقد انقضت شهور ثلاثة منذ أن غادرتها إلى الاتحاد السوفيتى ... لكنها عادت الآن وقد بدت أكثر أنوثة ونضجاً ... وكأن ما أضيف إليها من مهارات قد كان له أكبر الأثر فى جمالها ورونقها ... لكنها كانت تعيش أياماً قلقة فى انتظار ذلك الأمر المجهول الذى سوف يصدر إليها كى تقوم بمهمة لم تكن تعرف عنها شيئاً حتى الآن !

ومن الصعب، وربما ليس مهما أن نعرف المدة التى قضتها فى برلين الشرقية فى انتظار ذلك الأمر ... لكن الثابت، أن المدة كانت ـ ولابد ـ كافية تماماً لأن تعيدها إلى حياتها الأولى وسط جيرانها ومعارفها وأصدقائها وكأنها لم تختف تلك الشهور ... ومن ناحية أخرى، فلقد كانت ، كأى عميل محترف، تعلم أن لكل شئ توقيت بالغ الدقة، كما كانت تعرف ـ على الوجه الآخر ـ أنها لو سألت فلن يأتيها أى جواب، ذلك



أن هناك قانوناً بالغ الصرامة يتبعه الجميع فى الشرق والغرب، قانون يقول : إن المعرفة على قدر الحاجة ! . . .

فهل كانت فى حاجة لأن تعرف الآن ؟!

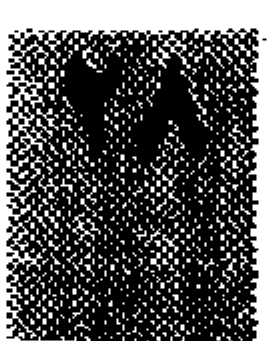
حتى إذا جاء يوم من أيام مايو عام ١٩٥٨، فوجئت ارمجارد أو العملية استيفانى بما لم يخطر لها على بال !!

فلقد فوجئت ذات صباح أن عليها أن تتوجه فى مساء نفس اليوم إلى بيت الرفيق « أرنست ووليبر » !

كان الاسم بالنسبة إليها رهيباً، وهى لم تحلم، ولم يخطر لها ببال. . . أنها سوف تلتقى بهذا الرجل الذى كان يحتل مركزاً مرموقاً فى مخابرات بلادها، كما كانت سمعته دائماً محاطة بكم هائل من الرهبة !

ذلك أن الهر ووليبر لم يكن رجلاً عادياً بأى معنى من المعانى . . . كان رجلاً ذا طابع خاص ، طابع صنعه تاريخه الطويل منذ أن كان فى ريعان الشباب. ذلك التاريخ الذى يزخر بالمواقف والثورة ضد النازية وهى فى ذروة مجدها وذروة سيطرتها على ألمانيا ثم أوربا فيما بعد. . . ومنذ أن قفز النازيون إلى الحكم فى عام ١٩٣٣، وحتى انتهاء الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٤٥، كان ووليبر واحداً من أهم شخصيات المقاومة السرية التى سببت للنازى صداعاً كبيراً، كما كبدته الكثير من الخسائر سواء فى السفن أو القطارات الحربية التى برع الرفيق أرنست فى تدميرها مع رجاله . . .

كان ووليبر فى ذلك الوقت قد أتم الخمسين من عمره ، وكان يتبوأ مركزاً من أهم مراكز جهاز المخابرات فى ألمانيا الشرقية، وهو رئيس شعبة الخدمة



السرية . . . وكان وصولة إلى هذا المركز محفوفاً بالكثير من الكفاح والصراع . . . كان طريقاً شاقاً، صنع منه رجلاً قادراً تماماً على إدارة دفة شعبته ببراعة شهد بها ولها الجميع!

ولقد بدا أمر هذا الاستدعاء لارمجارد شميدت غريباً كل الغرابة. . . فهى لاتعرف الرجل، وهى لم تلتق به مرة واحدة من قبل . . . وإذا كان الأمر أمر مهمة ستقوم بها ، فلماذا كان الاستدعاء فى البيت وليس فى المكتب؟! . . . وهل . . . وهل يرتبط هذا الاستدعاء بنوع من التكريم لها قبل بداية المهمة؟!

وعلى كل ، ودون استطراد . . . فمع امرأة مثل ارمجارد شميدت لها خبرتها الكافية مع أنواع عديدة من الرجال مهما كانوا ومهما علت مناصبهم. لم يكن الأمر ليبعث فى نفسها بالخوف أو القلق . . . ولذلك، فمع حلول الموعد الذى ضرب لها فى الصباح، كانت تقف أمام باب البيت وهى فى أبهى حلة، وأكمل زينة. . . وضعت فى اعتبارها ، وهى تتهيأ للذهاب إلى الموعد، أن الرفيق أرنست رجل كبقية الرجال، والرجال عادة، سريعو التأثر بالجمال !!

دقت الجرس ففتح الباب وكان الرفيق أرنست بشخصه هو الذى استقبلها . . . أدركت، وهى تخطو إلى الداخل أن لا أحد فى البيت سواهما ، كما لمحت، بجانب عينها ، تلك المائدة الصغيرة، وإن كانت حافلة. . . والتى أعدت لعشاء شخصين فقط!!

وعلى غير ما ظنت ارمجارد فلقد وجدت فى ووليبر شخصاً مرحاً، كما

وجدت فيه مغازلاً من نوع خاص . . . لكن الذى لفت نظرها حقاً بعد دقائق من بداية الحديث . . . هى قدرة ووليبر على المزج بين اللهو غير البرئ، وبين العمل ، بصورة تكاد تكون مثالية !

في تلك الليلة، قال الرفيق أرنست وهو يمر بأصابعه فوق بشرة ارمجارد الناعمة، إنه لا يعرف امرأة فى ألمانيا قادرة على القيام بالمهمة التى ستوكل اليها ، في مستوى قدرتها !

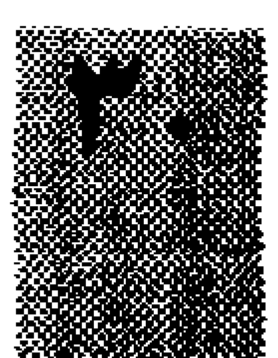
كان هذا إطراء أسعد ارمجارد دون شك . . . وعندما كان يجدد لها كأسها فى إحدى المرات التى فرغ فيها الكأس، قال : إن المهمة خطيرة بحق، وإنها تحتاج إلى ثبات أعصاب وقدرات من نوع خاص !

وانتبهت ارمجارد تماماً . . . فعاد الرجل بعد أن رشف من كأسه رشفة، كى يغمغم:

« ولكنى على يقين من أنك سوف تقومين بها على الوجه الأكمل ! » .

وتنفست ارمجارد الصعداء، كما داخلها زهو أشعرها بالسعادة!!

فى تلك الليلة، استمعت ارمجارد طويلاً، وتحدثت قليلاً . . . كانت، وسط طوفان من كلمات الغزل الممتزجة بالحديث عن العمل ، راغبة فى استيعاب المطلوب منها، حتى ولو لم تعرف طبيعة المهمة . . . إن رجلاً له خبرة الرفيق أرنست. لا يثرثر بلا هدف . . . وعندما قال ـ وكأن الكلمة أفلتت من بين شفتيه من غير قصد!!! ـ إن المهمة سوف تكون فى «برلين»، أدركت أن هذه الهفوة المقصودة، ليست سوى نوع من التكريم الخاص !



ولكن ، وعندما حان وقت الرحيل، كانت فى انتظارها مفاجأة أكبر ٠ ٠ ٠ فلقد قام الرفيق أرنست بقيادة سيارته بنفسه، كى يوصلها حتى باب بيتها ، وكان الليل قد انتصف منذ دقائق !!

***

كيف قضت ارمجارد ليلتها الفاصلة تلك ؟!

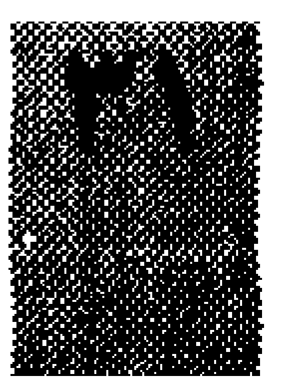
إن المؤكد، والذى اعترفت به فيما بعد ٠ ٠ ٠ أنها كانت سعيدة سعادة حقيقية، بل كانت سعيدة مثل طفلة استخفها المرح، لكن الذى تسبب فى فرحتها تلك ، أنها سوف تنتقل إلى برلين الغربية ـ مهما كانت خطورة المهمة الموكلة إليهاـ حيث الأضواء تتلألأ ، والفتارين مكتظة ببضائع تصيب رأس من كانت مثلها بالدوار ٠ ٠ ٠ كانت سعيدة لأنها سوف تنتقل إلى حيث الفراء والجوارب الأنيقة ومعدات التجميل التى يعز الحصول عليها حيث كانت تعيش، حيث المباهج والمسارح ودور السينما ومحلات اللهو!

وهكذا ٠ ٠ ٠ وعندما كان النوم يداعب جفونها ، كانت يتردد فى ذهنها ، ذلك الموعد الذى ضربه لها الرفيق أرنست فى مكتبه ، فى صباح اليوم التالى .

كان الموعد فى الإدارة الثانية بمبنى مخابرات ألمانيا الشرقية، فى غرفة تحمل رقم ٢٠٩ ٠ ٠ ٠ وكان عليها عندما تصل إلى المبنى فى تمام العاشرة من صباح الغد، أن تطلب مقابلة الرفيق « أرنست » .

فقط ٠ ٠ ٠ كان هذا هو كل ما كان عليها أن تفعله !!

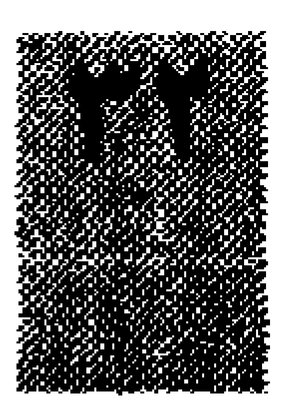
كان الصباح التالى رمادياً خفيف الضباب ٠ ٠ ٠ وصلت ارمجارد إلى إحدى محطات سكك حديد الضواحى قبل الموعد المحدد بنصف ساعة ٠ ٠ ٠



كانت ترتدي فستاناً بسيطاً عاديا كهذا الذي ترتديه أية فتاة في برلين الشرقية، وهي لم تضع فوق وجهها أي نوع من أنوع المكياج كما أنها عقصت شعرها وجمعته في مؤخرة رأسها مما أضفى على مظهرها أهمية من نوع خاص . . . كان النصف ساعة الباقي على الموعد كافياً لأن تقطع المسافة إلى حيث مبنى المخابرات على الأقدام، كما كان كافياً أيضاً لأن تؤمن نفسها وهي تدلف إلى المبنى ، حيث لا يجب أن يراها أحد وهي تخطو إليه!

في تمام العاشرة كانت تسير فوق الطوار وسط المارة بشكل طبيعي للغاية، وعندما اقتربت من المبنى شملت المكان بنظرة خاطفة أكدت لها أن أحداً لا ينتبه إليها، في خطوات واثقة ثابتة سارت ، حتى إذا حاذت الباب، غيرت اتجاهها فجأة، ودفعت الباب في بساطة من يفعل هذا كل يوم، واختفت في الداخل .

كانت هذه هي المرة الأولى التي تدخل فيها ارمجارد هذا المبنى الحجري رغم انتمائها إليه منذ سنوات ليست بالقليلة . . . ذلك أنه ليس من حق بعض هؤلاء الذين يتعاملون مع مثل هذه الأجهزة، أن يزوروا تلك المباني المحاطة بسياج صارم من السرية . . . ولقد يظل العميل مرتبطاً بهذا الجهاز أو ذاك لسنوات طويلة، دون أن تطأ قدمه مبنى الجهاز نفسه. . . إن هناك وسائل أخرى للاتصال، ليس من بينها اللقاء في مثل هذه المباني، حتى لا يتصادف ـ مهما تضاءلت الفرصة أو حتى انعدمت ـ أن يرى إنسان ما ذلك العميل فيعرف طبيعة علاقته به !



ما إن خطت ارمجارد إلى الداخل، حتى وجدت نفسها أمام حارسين مسلحين ... سألها أحدهما عما تريد، فقالت فى ثبات من يعرفه طريق جيداً :

« الإدارة الثانية! » .

كانت هاتان الكلمتان كافيتان تماماً، لكن الحارس عاد وسأل :

« من تريدين فى الإدارة الثانية؟! ».

« الرفيق أرنست ! » .

نظر الحارس، الآن فقط، فى دفتر كان موضوعاً على مكتب جانبى صغير، غمغم وهو يقلب صفحة :

« الاسم من فضلك؟! »

« الرفيقة استيفانى! ».

وهكذا قادها الحارس إلى ممر طويل، انثنى قبل نهايته إلى سلم صعدا عليه حتى الطابق الثانى ... وهناك أفضى بها السلم إلى ممر أطول من سابقه، حيث سارت بين صفين من الأبواب المغلقة والصمت المخيم على المكان ... كان لكل غرفة رقم، فماإن وصلا إلى باب غرفة يحمل رقم ٢٠٩ ، حتى تقدم الحارس، كى يفتح لها الباب، ويفسح لها الطريق !

كانت الغرفة التى خطت إليها ارمجارد صغيرة عارية من الأثاث تقريباً، بعد الخطوة الأولى سمعت صوت الباب من خلفها وهو يغلق ... فى صدر الغرفة كان يجلس موظف شمعى الوجه، أمام مكتبه مقعدان بسيطان ...

على الجانب الأيمن أريكة تبدو وكأن أحداً لم يستعملها منذ وقت طويل . . . أمام الأريكة مباشرة وعلى الجانب الأيسر، كان ثمة باب أدركت ارمجارد، وقد شملت المكان بنظرة، أنه بالقطع يوصل إلى غرفة أخرى!

تقدمت من الموظف في خطوات ثابتة وكانت عيناه، منذ دلفت، مثبتتين فوقها . . . حتى إذا وقفت أمامه قالت دون أن تلقى التحية:

«إنى على موعد مع الرفيق أرنست!».

ظلت نظرات الموظف مسمرتين فوق وجهها لثوان، ثم نظر فى ورقة كانت أمامه، وبعدها أشار إلى أحد المقعدين وهو يقول :

« الرفيقة استيفانى؟!» .

« نعم!» .

« تستطيعين أن تستريحى قليلاً، فالرفيق أرنست لديه بعض المشاغل!» .

استجابت ارمجارد وإن كان قليل من التذمر قد داخلها . . . أدركت وهى تجلس على المقعد المقابل للباب الداخلى، أنها عصبية بعض الشئ، وأن الدقائق الباقية حتى تعرف طبيعة مهمتها تمر بها بطيئة كل البطء . . . انتبهت على صوت الموظف الجالس خلف المكتب وهو يقول :

«إنك لن تستطيعى مقابلته الآن . . . ومن ثم فعليك أن تنتظرى حتى يطلب أن يراك !» .

ولم يكن هناك ما ترد به سوى الصمت !!

غرقت الغرفة بعد ذلك فى صمت شديد العمق . . .

وكانت ارمجارد تدرك الآن أنها خطت خطواتها الأولى، إلى عالمها الجديد المجهول. . . عالم سوف يكون مثيراً دون شك، محفوفاً بالمخاطر، وإنها سوف تتمتع بمباهجه وتنهل منها . . . لكنه عالم قد يقودها إلى الطريق الذى ستسلكه فيه إلى ما لا تستطيع أن تعرف. . . وارتعدت!

الإنسان هو الإنسان . . . !

ومهما كانت صلابة سيدة مثل ارمجارد شميدت وقوة أعصابها، إلا أنها لم تستطع، وهي تجلس في تلك الغرفة الغارقة في الصمت ، إلا أن تفكر إن كان هناك خطأ ما قد وقع . . . وبالأمس كان الرفيق أرنست ودوداً محباً، وربما كان ممتناً أيضاً لتلك الليلة التي منحته إياها . . . وهو قد أكد لهاأن الموعد في العاشرة تماماً، وها هي قد جاءت في الموعد ، فما الذي يدفعه لأن يتركها نهباً للقلق، أو يتجاهل وجودها!!

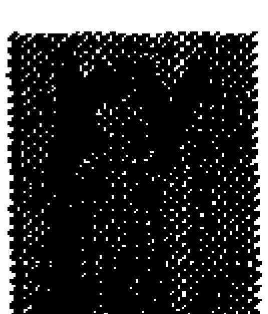
التفتت نحو الموظف الجالس خلف المكتب وكان مستغرقاً ،أو متظاهراً بالاستغراق، في قراءة بعض الأوراق وكأنها غير موجودة. . استبد بها الغيظ والضيق، قالت في صوت متعثر :

« ألا تنبئ الرفيق أرنست أني موجودة ؟!»

رفع الشاب رأسه نحوها، وحدجها لثوان بنظرته تلك التي لا تنبئ عن شيء، ثم قال:

«إنه يعرف أنك هنا الآن !»

قال هذا وعاد إلى ما كان فيه فأحست أن الدقائق تطول بها وتطبق على

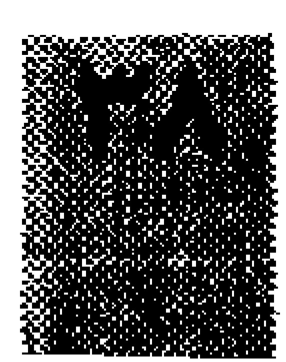


صدرها . . . ولم يكن أمامها سوى الهرب من اليوم إلى الأمس، إلى ما حدث فى الليلة الماضية !!

راحت ارمجارد شميدت تستعيد كل ما قاله لها أرنست بالأمس حول العملية مما أثارها حقاً . . . لم يكن فى حاجة لأن يذكر أنها سوف تُرسل للتعامل معهم . . . هل هم رجال أعمال، أم صحفيون . . . أم أنها سوف تتعامل مع تلك الجاليات الصغيرة للجيش الأمريكى من عائلات جنوده وضباطه، الذين كثيراً ما سمعت أنهم يتيهون فى شوارع برلين الغربية وهم يمضغون اللبان وينفقون المال بغير حساب وكأن معينه عندهم لا ينضب !

كانت هناك عشرات من الأسئلة والأفكار تطرح نفسها عليها طرحاً، وتزحم رأسها بحثاً عن إجابة . . . أحست بالإرهاق فانتبهت إلى أن نومها فى الليلة الماضية كان قلقاً غير مستقر، فراحت تستجلب صوراً خيالية للفتارين وما يعرض فيها من فراء وملابس، والبضائع الأمريكية والأضواء والألوان والملاهى ودور اللهو والسينمات والمسارح وكل ما تعج به برلين الغربية من مباهج سمعت عنها الكثير . . . على كل فلقد تنفست الصعداء ذات لحظة وقد أدركت أن عليها أن تنتظر الرفيق أرنست حتى يتفضل بلقائها، فلا حيلة لها فى الأمر، ولقد علمتها التجربة، أن مثل هؤلاء الناس الذين يصلون إلى مناصب حساسة ورفيعة، من الصعب مواجهتهم أو الاعتراض على تصرفاتهم مهما بدت غير لائقة !

ولا تدرى ارمجارد شيئاً عن الوقت الذى مضى حتى فتح الباب الموصل إلى الغرفة الجانبية، وكان الرفيق أرنست ووليبر ، بشحمه ولحمه، يقف



هناك، فى فتحة الباب. . . ألقى عليها نظرة سريعة، وهب الموظف الجالس واقفاً فى احترام . . . ظلت فى مكانها وقد اجتاحتها الدهشة، ذلك أن الرفيق ووليبر لم يبد عليه أنه رآها من قبل، أو حتى تعرف عليها . . . كان وجهه جامداً مثل قناع من صلب . . . أومأ لها برأسه أن تتقدم ، فنهضت ، وتقدمت !

. . وحتى عندما خطت أرمجارد شميدت إلى الغرفة، وعندما أغلق الرفيق ارنست الباب وخطا عائداً إلى مكتبه، لم يكن يبدو عليه أنه يعرفها . . . كل ما فعله أنه سار إلى حيث مقعده خلف المكتب دون كلمة واحدة، ودون حتى أن يطلب منها الجلوس.

أدركت ـ بقليل من المرارة ـ أنها ـ بالنسبة إليه ـ ليست سوى واحدة من المئات، وربما ألوف النساء اللواتى يعملن تحت إمرته، ولقد بدا الرجل مختلفاً كل الاختلاف عن هذا الذى كان يتمرغ بين ذراعيها ليلة أمس وهو يهمس لها بكلمات الإطراء.

ما أن استقر الرفيق أرنست فوق مقعده، حتى انكب فوق أوراق كانت أمامه وراح يقلب فيها . . . ولم يكن أمامها سوى أن تتقدم إلى أقرب مقعد لها وأن تجلس عليه فى صمت انتظاراً لما سوف تسفر عنه الدقائق القادمة !

راحت تتملاه فى إمعان . .

كان أرنست ووليبر يمثل لها الآن نموذجاً من الرجال جديراً بالدراسة حقاً . . . ذلك أنها أصبحت موقنة، بعد بضعة دقائق فقط. أن الرجل لم

يكن يتظاهر بالاستغراق فيما أمامه من أوراق . . . بل إنه بالفعل كان مستغرقاً وكأنه انفصل عن العالم المحيط به ، إلى حيث عالم آخر، عالم كانت ارمجارد تعرف بعضاً منه . . . مرة أخرى سرت فى جسدها رعدة، إن مثل هذا الاستغراق ينبئ عن عشق للمهنة . . . عشق دفع به فى السلم الوظيفى إلى حيث كان يجلس الآن غيرشاعر بوجودها وكأنها قطعة من أثاث الغرفة التى بدت لها جافة لا ذوق فيها.

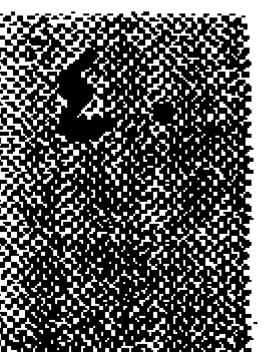
وفجأة . . . وكأنه انتبه لتوه أنها هناك، رفع رأسه نحوها وكانت فى عينيه نظرة دهشة حقيقية، تململت فى قلق . . . غمغم متسائلاً :

«استيفاني؟»

هتفت وكأنها تتوسل :

«نعم أيها الرفيق !»

عاد إلى صمته من جديد . . . بدت عيناه وكأنهما تعلقتا بشبح غير مرئى بحثاًعن شئ مجهول . . . أحست بالحرج عندما طال صمته، تململت،قالت لنفسها: لابد أنه الآن يزن كل شئ بميزان بالغ الحساسية، ولكن . . . ما هى الأشياء التى كان يزنها فى رأسه . . . أنها أشياء بالضرورة، متعلقة بها، وربما كانت متعلقة بالمهمة التى تستعد الآن للقيام بها . . . حاولت أن تخمن شيئاً، أن تسيطر على أفكارها دون جدوى، كانت الأفكار قد اختلطت فى رأسها بعنف فأحست بالارتباك، وتمنت ألا يوجه لها الآن أية أسئلة، لأن إجابتها بالقطع سوف تشي بما اعتراها . . . فماذا لو أنها وجدت فى نفس الموقف على الناحية الأخرى من سور برلين الشهير ؟!



عندما امتدت يده نحو الهاتف ارتجف قلبهاوضاعت أنفاسها ، وكانت دهشتها عظيمة، ذلك أنها لم تتصور ولم تتخيل أنها ، بعد كل التجارب التي مرت بها ، من الممكن أن تخاف مثل هذا الخوف الغريب . . . أخذ أرنست ووليبر يتحدث في الهاتف بصوت خافت لم تسمع منه كلمة ، وإن كانت حركة الشفاه قد أنبأتها أنه يطلب أشخاصاً!

أعاد السماعة وأغلق الملف الموضوع أمامه، وبعدها فتح في الغرفة باب آخر غير الذي دخلت منه. وسرعان ما انضم إليهما ثلاثة من الرجال كان كل منهم يحمل في يده ملفاً . . . وكانوا جميعاً يتحركون في آلية وانضباط بالغين . . . ذلك أنهم توجهوا إلى ثلاثة مقاعد وجلسوا عليها . . . ومن ثم ، فلقد وجدت ارمجارد نفسها في اجتماع على أعلى مستوى في مخابرات ألمانيا الشرقية !!

كان الرجال الثلاثة الذين دخلوا إلى الغرفة هم :

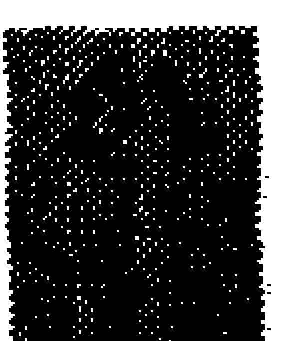
الرفيق « إيريك ميلك » النائب الأول لأرنست ووليبر.

والرفيق « هيرمان ديتز » رئيس الإدارة الرابعة.

أما الثالث فكان الرفيق « هوجو باور » رئيس إدارة الجاسوسية المضادة !

الآن . . . والآن فقط، أدركت ارمجارد شميدت، أن العملية التي سوف توكل إليها ، ليست عملية عادية، وإنما هي شئ فوق العادة، فأحست مع الزهو الذي انتابها ،بخوف عربيد يسيطر عليها!!

امتدت ساعات الاجتماع طويلا . . . وإذا ما كانت الاجتماعات بين مثل هؤلاء الأقطاب في ذلك العالم السري عادة لا تطول، فالحديث يصبح مركزاً،



والمعلومات لابد وأن تكون متوفرة والأفكار واضحة والهدف جلياً ... إلا أن هذه العملية بالذات، بدت على قدر من الأهمية بحيث امتد الجدل بينهم وبينها إلى ساعات أحست ارمجارد أثناءها وكأن أيدى الرجال تعتصرها اعتصاراً لا رحمة فيه !

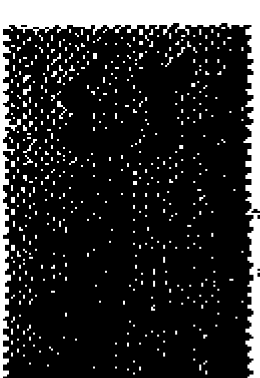
بعد دقائق قليلة، عرفت أرمجارد طبيعة العملية التى أوكلت إليهاالأول مرة ... وهى ، عندما عرفت اعتراها وجوم دام لثوان، وجوم حاولت التخلص منه بسرعة حتى لا يلحظ واحد من الرفقاء أى أثر له على ملامحها ..

باختصار، عرفت ارمجارد شميدت أن المطلوب منها أن تخترق رئاسة المخابرات الأمريكية فى برلين الغربية!!

تلك لحظات من الصعب وصفها، كما أنه من الصعب أيضاً التعبير عن تلك الأحاسيس البالغة التناقض التى تنتاب هذا النوع من البشر، الذى قدر له أن يخطو إلى دائرة الجحيم معتمداً على قدرات شديدة الخصوصية، مهما بلغت دقة التدريب أو درجته أومستواه ... هى لحظات، يختلط فيها الخوف بالزهو و بالرغبة العارمة فى المغامرة واستشعار تلك اللذة الخفية التى تسرى فى الأوصال إذا ما واجه الإنسان خطراً مميتا!!

وإذا كانت كلمة اختراق تبدو غريبة بعض الشئ، إلا أن المعنى سوف ينجلى إذا ما قلنا أنه كان على ارمجارد شميدت أو العملية استيفانى، أن تحصل على وظيفة فى قلب مبنى المخابرات الأمريكية !

كانت الفكرة باهرة دون شك، كانت فكرة مجنونة !



ولكن كيف ؟!

إن الطريق إلى تحقيقها محفوف بآلاف المخاطر والعقبات، وإذا كان الأمر كذلك، فلقد أدركت منذ اللحظات الأولى أن عليها أن تستعد لارتداء شخصية أخرى ... شخصية كاملة لها ما ضيها وتاريخها ومواصفاتها الخاصة وأصدقاؤها ومعارفها وجيرانها وأهلها وأقاربها ... و ... و... ولابد لكل هذا أن يوثق وأن يكون حقيقياً إلى أقصى حد ممكن !!

غير أن أرمجارد عندما بدأ الجدل والحوار والسؤال عن التفاصيل، فوجئت بما لم يخطر لها ببال ... كما أدركت أنها تجلس مع مجموعة من العقول البالغة الذكاء... فلقد كانت الخطة تعتمد على فكرة شديدة البساطة، لكنها فكرة جهنمية، فكرة مذهلة .

كانت الفكرة تعتمد على أن تتقدم أرمجارد شيمدت إلى المخابرات الأمريكية في برلين الغربية ، باسمها الحقيقي، بل وشخصيتها الحقيقية !!!

كانت الفكرة تعتمد على أن تتقدم إلى المخابرات الأمريكية على أنها عميلة تعمل لحساب مخابرات ألمانيا الشرقية !!

إن عبقرية الفكرة هنا ، تتجلى في نقطة تبدو مهمة إلى أقصى حد... هذه النقطة هي أن ارمجارد شميدت ليست حديثة العهد بالعمل في المخابرات، بل هي عميلة قديمة ... وقد يكون هناك احتمال، مهما صغر شأنه، أن تكون المخابرات الأمريكية قد رصدتها أو على الأقل ، على علم بوجودها ونشاطها ... وهكذا، إذا ما تقدمت بصفتها الحقيقية، كان هذا تدعيماً للمعلومات التي يمتلكها الأمريكيون ... وإن لم يكونوا على علم بالأمر ... فها هي تقدم لهم صيداً ثميناً وسيلاً من المعلومات !

ولكن، ومرة أخرى . . . كيف ؟!

كانت ارمجارد في فترة من حياتها، قد عملت كممثلة مسرح، وهى لم تكن ممثلة فاشلة رغم اعتزالها التمثيل منذ سنوات . . . وكان المطلوب منها، أن تستعين بموهبتها المهملة، وأن تلعب أخطر أدوارها، ليس على المسرح، ولكن في الحياة . . . إن بعض الإضافات، وبعض التحوير، مع ماض يكون قريباً كل القرب من الحقيقة، ماض لا يستطيع الأمريكيون أن يصلوا إلى كنه الحقيقة فيه. . . كفيل بأن يضمن لها النجاح .

وهكذا امتد الاجتماع بين الرجال الأربعة وبين ارمجارد شميدت إلى ساعات امتدت حتى غروب الشمس . . . وعندما كانت تغادر المبنى في ذلك اليوم ، كانت قد استوعبت الخطوط الرئيسية في الخطة استيعاباً كاملاً . . . كانت الخطة محكمة تماماً، والقصة بالغة الحبكة وإن كانت التفاصيل فيها كثيرة إلى حد قد يبعث على الارتباك لمن لم يدرب على التركيز . . . ولقد أحست ارمجارد بعد مضى ساعات من المناقشات التى شملت عشرات الأحداث والأسماء والرجال، رجال حقيقيون، منهم من يعرفهم الامريكيون ومنهم من سمعوا عنهم فقط . . . أحست أرمجارد أن ما كان عليها أن تحفظه حقيقى مائة في المائة . . . ولكنها كانت تعلم في ذلك المساء أيضاً، أن الغد سوف يأتى عليها كى تدخل دوامة أخرى من التدريبات والتفاصيل. . . وكانت هناك إجابة على كل سؤال سوف تطرحه، ومخرج لأى مأزق قد تقع فيه، وأنهم سوف يقدمون لها، فوق هذا، كل المعلومات التى تلزمها كى يصدق الأمريكيون حكايتها!!

كانت موقنة أن هناك خبراء فى انتظارها منذ الغد كى يضعوها تحت ضغوط وأسئلة واختبارات، تصنع منها، قبل أن تعبر سور برلين، إنساناً آخر تماماً ... لكنه يحمل اسمها وجزءاً من حقيقتها ... وهو فى جملته، إنسان لا يمت إليها بصلة !

ومرت أيام لم تكن كثيرة العدد على أية حال ... انغمست ارمجارد فى القصة انغماساً كاملاً ... حتى إذا أصبحت مستعدة لبدء المهمة، كان عليها وحدها، وبعيداً عن أية مساعدة، أن تعبر سور برلين .

***

هنا يجدر بنا التوقف قليلاً ... فمما لا شك فيه، أن هذه العملية من حيث التكتيك، تعتبر عملاً جريئاً ونموذجيا أيضاً ... وهى فى الوقت نفسه، عمل قومى بالنسبة لرجال يعملون لصالح وطنهم ضد جهاز آخر للمخابرات لاشك فى قدراته وإمكانياته مثل جهاز المخابرات الأمريكى ... فهل من الممكن فى مثل هذا العالم المحفوف بالمخاطر، ذى القوانين الصارمة، أن تكون أسباب شخصية بحتة عند هذا أو ذاك من الرجال، هى الدافع للإقدام على مثل هذه العملية الخطيرة ؟!

إن الكاتب كورت سنجر الذى كشف ـ لأول مرة ـ عن هذه العملية، يورد هنا سبباً يبدو بالغ الغرابة للقيام بتلك المهمة !

إنه يقول إن الرفيق ارنست و وليبر كان متزوجاً ، قبل بضع سنوات من السيدة «جوردون وبيك» ... وتصادف أن كانت فروا وليبر فى زيارة للعاصمة النرويجية أوسلو، عندما عرف الامريكيون بوجودها، فتعرضوا لها

في محاولة لمعرفة شئ عن ماضيه ونشاطه . . . ولقد ضايقه هذا الاقتراب من زوجته، واعتبره نوعاً من الخروج على التقاليد والأعراف، فقرر الانتقام !! . . . وكان أن تمخضت قريحته عن تلك الفكرة، وهي زرع واحدة من عميلاته داخل مكاتب المخابرات الأمريكية نفسها !!

إننا نورد هذه القصة هنا بتحفظ شديد . . . لا لأننا ننفي العامل الشخصي أو نريد استبعاده، ولكن لأنها في مجملها تبدو كنوع من الدعاية المضادة تستهدف التقليل من شأن و ليبر ، ذلك أن التدني في العملية ككل، إلى مستوى الانتقام الشخصي، أمر لا يستقيم مع الهدف الأكبر للعملية، وهو اختراق جهاز معادٍ، والحصول على أكبر كم من المعلومات عنه، وهو ما قد حدث فعلاً !!

ولقد يحق لنا أن نتساءل :

هل كان في نية أرنست وليبر، في حالة نجاح عمليته في مهمتها ،أن يكشف أمرها، في لحظة ما ، حتى تصل رسالته إلى الأمريكيين، ويعرفون أنه انتقم من تصرفهم؟! . . . أم أن العملية كانت ستظل مطوية في الأضابير حتى يحين وقت الإعلان عنها ، أو لا يحين هذا الوقت أبداً ؟!

ونحن لا نملك إجابة حاسمة عن هذا السؤال . . . لكننا قد نعثر عليها ـ ظناً وتخميناً ـ إذا ما تتبعنا هذه القصة التي بدأت خطواتها الحاسمة في ذلك المساء الذي عبرت فيه السيدة ارمجارد شميدت سور برلين بأسلوبها الخاص، عبرت السور سراً، ولم يكن هذا أمراً صعباً . . . ثم ، وقبل أن تنقضي ثمان وأربعون ساعة . . . كانت قد بدأت بالفعل في تنفيذ المهمة !

في مساء يوم جمعة من أيام شهر مايو عام ١٩٥٨، وكان الوقت يقترب من الحادية عشرة ... دلفت إلى مبنى المخابرات الأمريكية في برلين الغربية، سيدة بدت أنيقة في بساطة آسرة... كانت ترتدي ثوباً أزرق اللون، يتماوج مع قسمات جسدها المتناسق الفارع ... وكانت خصلات شعرها الذهبي تتناثر فوق كتفيها، كي تصنع مع الثوب الأزرق مزيجاً لونياً أخاذاً... فوق ذراعها، ألقى في إهمال فراء صغير يتناسب مع ربيع برلين البارد، وكانت تحمل في يدها حقيبة رمادية اللون.

كان الجندي المعين للحراسة في ذلك الوقت ، يدعى چون ديلبرت ... ولقد لفت نظره صوت دقات حذاء السيدة وهي تصعد الدرج المؤدي إلى الباب ... رغم دهشته الشديدة لقدوم مثل هذه السيدة في ذلك الوقت المتأخر، إلا أن جمالها لفت نظره ... انتبه في وقفته وتقدم منها في أدب:

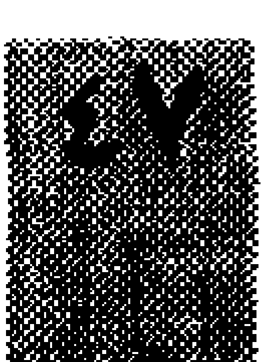
« سيدتي ! »

ردت في صوت متكسر وهي تبدو كالمترددة :

« سيدي! »

« ما الذي أستطيع أن أفعله من أجلك ؟! »

رمته الحسناء الفارعة الطول بنظرة دفعته لأن يبتلع لعابه ... راودته نفسه ذات لحظة أن يغازلها لكنه تراجع ... فمثل هذا النوع من النساء يخص الضباط من ذوي الرتبة العالية ... جاءه صوتها وهي تتحدث بإنجليزية تشوبها لكنة ألمانية وقد ازداد ارتباكها :



« لست أدرى فى حقيقة الأمر . . . . . . »

نظر الجندى فى ساعة يده متمتماً فى تساؤل :

« سيدتى ؟! »

« إنى أريد مقابلة شخص مسئول ! »

هم الجندى بالحديث فأردفت وهى تتلفت حولها فى قلق :

« إن لدى ما أريد الإدلاء به ! »

قالت هذا ثم التفتت نحو الباب فى لمحة قلقة أوحت للجندى أنها تخشى أن يراها أحد . . . ولقد أصابه الارتباك لثوانٍ ، فبداية لم يكن الوقت مناسباً للإدلاء بمعلومات، ثم . . . ثم أنه لم يكن مسموحاً لأحد أن يأتى لمثل هذا المكان دون موعد كى يطلب الإدلاء بمعلومات . . . ولم يكن أمامه سوى أن يسأل :

« أى شئ تريدين الإدلاء به يا سيدتى ؟! »

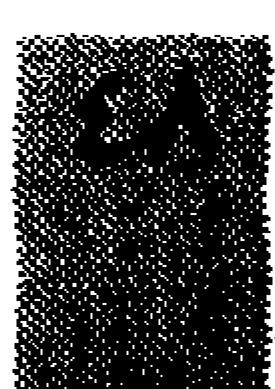
سددت إليه نظرة من يعرف قدر نفسه، وسألته بنغمة لم تحاول إخفاء رنة السخرية فيها :

« هل أنت مخول بأن تسأل !! »

أدرك الجندى على الفور أنه أمام شخصية تعرف ما تريد بالضبط . . . مالبث أن أشار إلى مقعد فى ركن بعيد عن الباب وهو يقول :

« تفضلى هنا . . . ولسوف أرى ما يمكن أن أفعله ! »

خطت السيدة إلى المقعد، وما أن استقرت فى مكانها، حتى رفع سماعة التليفون وهو يسأل :



« الاسم من فضلك ! »

قالت فى ثبات :

« شميدت ‧ ‧ ارمجارد شميدت ! »

أدار چون ديلبرت قرص التليفون ، ثم تحدث همساً لثوان أعاد بعدها السماعة وهو يقول :

« سوف يستقبلك الملازم فريسبى بمجرد أن ينتهى مما فى يده ! »

هزت أرمجارد رأسها شاكرة ‧ ‧

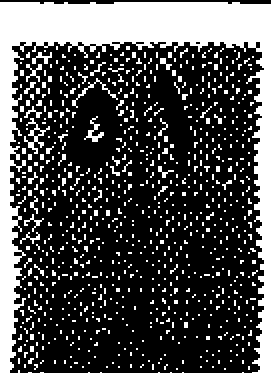
كانت تعلم الآن، أنها من الممكن أن تظل فى جلستها تلك لساعات دون أن يظهر هذا الذى أطلق عليه الجندى اسم فريسبى ‧ ‧ ‧ ولكن ، لم يكن أمامها ما تفعله سوى أن تنتظر ‧ ‧ ‧ فليس هناك الآن طريق للعودة ‧ ‧ ‧ أو للتراجع .



الذى لا شك فيه، ان الملازم فريسبى الذى تلقى المكالمة الهاتفية من جندى الحراسة «چو ن ديلبرت» ... كان قد تعود أثناء خدمته فى برلين الغربية، على العديد من الرجال والنساء الذين كانوا يتوافدون بين الحين والحين على إدارة المخابرات، للإدلاء بمعلومات أو الإبلاغ عن واقعة أو حديث أو اشتباه ... وأن الأمريكيين كانوا يكتشفون أن غالبية هؤلاء الناس كانوا فى حقيقة الأمر يسعون للحصول على بعض المال ... لذلك، فهو لم يكن فى عجلة من أمره عندما أبلغه الجندى المكلف بالحراسة فى ذلك المساء، عن وجود تلك السيدة التى تدعى أن لديها ما تريد الإدلاء به !

عندما نظر فى ساعة يده انتابته الدهشة ، كان الوقت متأخراً، والساعة تقترب من منتصف الليل، ولقد لفت نظره هذا الأمر، فلماذا اختارت هذه السيدة مثل هذا الوقت بالذات ؟! ... وعلى كل ، فلقد كان يستطيع أن يخمن أو يفترض سبباً أو آخر، لكنه أجل التخمين حتى يرى تلك السيدة بنفسه ... وهكذا، وبعد أن استمر تردده لدقائق، قرر ـ فى تكاسل ـ أن يراها ... فترك ما فى يده من أعمال، وغادر مكتبه !!

لم تكن ارمجارد عندما جلست فوق ذلك المقعد المنزوى ، تدرى كم من الوقت سوف يمضى قبل أن يلقاها الملازم فريسبى الذى قال الجندى ديلبرت



أنه قادم لرؤيتها ... كانت بالتجربة، تعلم أن بعضاً من الوقت سوف يمضي قبل أن يراها أحد المسئولين، وقت قد يمتد إلى ساعة وربما ساعتين ... وقت كاف لأن يضغط على أعصاب أى من الذين يريدون الإدلاء بما لديهم ... حتى إذاالتقوا بهم الضابط أو ذاك، كانوا جاهزين تماماً للإدلاء بما لديهم دون لف أو دوران ... وهى ، فى الوقت نفسه كانت مدركة ، أشد ما يكون الإدراك، أن كل تصرف أو حركة تأتى بها فى جلستها تلك، سوف تحسب لها أو عليها ... ولذلك، فلقد كانت حريصة كل الحرص على أن تظل جامدة فى جلستها تلك المستقيمة الظهر، واضعة ساقاً فوق ساق، وكأنها تحولت إلى تمثال لا حياة فيه !!

غير أن ظنها خاب حقاً عندما سمعت صوت خطوات تدق الأرض فى ثقة ... كانت الخطوات تقترب ، ولم يكن قد مضى على وجودها فى المكان أكثر من عشرين دقيقة ... كانت الخطوات ثابتة واثقة، كانت خطوات إنسان يعرف طريقه تماماً ... وهى، عندما التفتت نحو مصدر الصوت، كان الملازم فريسبى قد وصل فعلاً !

وجدت ارمجارد شميدت نفسها أمام شاب فى العشرينات من عمره، وسيم، أنيق الملبس، تشع من عينيه نظرات تشى بذكاء لا شك فيه ... ما إن خطا فريسبى إلى البهو خطوة ووقعت عيناه عليها، حتى توقف ... فاستقبلته بابتسامة واهنة، وتململت فى جلستها كمن ترى أن تنبئه بأن انتظارها طال أكثر مما ينبغي!

أما هو، فلقد رماها بنظرة الخبير ببواطن الأمور، نظرة من يعرف مقدماً ما الذى تحمله وتسعى إليه ...هز رأسه فى تحية مقتضبة، فردت تحيته بمثلها، امتدت يده إلى باب جانبى ففتحه وهو يومئ إليها أن تتقدم،

فنهضت، وتقدمت بخطوات متعبة . . . أفسح لها الطريق فدلفت إلى الغرفة ودلف هو وراءها وأغلق الباب !

عندما أصبحت فى منتصف الغرفة استدارت نحوه، كان يقف عند الباب وقد عقد ذراعيه فوق صدره بادى التأفف، ولقد سألها على الفور :

« ما الذى أستطيع أن أفعله من أجلك يا سيدتى ؟! »

رفعت حاجبيها دهشة وهى تتساءل :

« ألا تدعونى إلى الجلوس سيدى الملازم! »

أصيب فريسبى بالارتباك، كان يبدو فى عجلة من أمره . . . فتمتم معتذراً وهو يشير إلى أحد المقاعد ، فجلست لكنه لم يجلس ، بل بادرها مرة أخرى بقوله :

«لقد أخبرنى الجندى المكلف بالحراسة أن لديك ما تريدين الإدلاء به ! ».

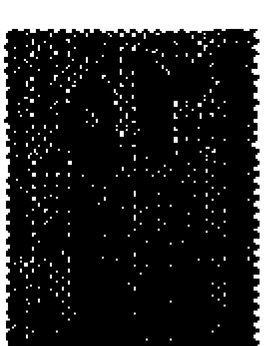
ما أن قال فريسبى هذا حتى بدا على ارمجارد الخوف والتردد . . . تلعثمت، تمتمت بكلمات تنبئ عن حيرتها ، فعاد فريسبى إلى الحديث بنبرة تعلن عن تأففه، قال :

« إنى مصغ إليك؟! ».

فى صوت متكسرفيه نبرة من توسل قالت :

« سيدى الملازم . . .لست أقصد مما سوف أقوله أنك لست الشخص المناسب لسماع قصتى . . . ولكن، هناك نقاط بالغة الأهمية، لا أريد أن أكررها أو أقصها أكثر من مرة !! ».

رغم رنة الاعتذار التى بدت فى صوتها، إلا أن حديثها كان من الوضوح والمنطقية، بحيث أوقع الملازم الشاب فى حرج واضح . . . كان قد أعد نفسه للقاء واحدة من هاته الألمانيات اللواتى كن يسعين للحصول على المال



بطريقة أوبأخرى . . . ولابد أن أرمجارد ، بخبرتها ونظرتها الثاقبة، قد أدركت الحرج الذى أوقعت فيه ذلك الشاب عامدة، ولذلك . . . فلقد أضافت وهي ترميه بنظرة حانية :

« إن الأمر يتعلق بأمر المخابرات الشرقية !» .

سقطت ذراعا فريسبى إلى جواره . . . كانت الجملة مثل طلقة لم يكن أبداً فى انتظارها . . . عادت ارمجارد تقول فى شبه همس وكأنها تربت على ذراعه :

« صدقنى إن قصتى معقدة أشد ما يكون التعقيد !!» .

بدا الشاب فى تلك اللحظات وكأنه طفل تتلاعب بعواطفه امرأة محنكة.

مالت نحوه وقد برقت عيناها ببريق يحمل إعجاباً لاشك فيه وهى تردف:

«لم لا نختصر الوقت وتتكرم بأن تطلب حضور واحد من رؤسائك؟!» .

لم يكن فيما قالته أى نوع من أنواع التعالى . . . بل كانت الكلمات تشى بوضوح أنها امرأة من نوع خاص، نوع يستحق اهتماماً أكثر !

كانت جملتها مثل ضربة قاضية أنهت الجولة الأولى من المباراة لصالحها . . . فلقد فتح فريسبى فمه لكنه لم يقل شيئاً، بل استدار مغادراً الغرفة دون أن ينطق حرفاً، وكان يبدو عصبياً !!

. . . .

. . . .

ما أن غادر فريسبى الغرفة، حتى كبحت ارمجارد ابتسامة كادت تغلبها على أمرها . . . ولقد تمنت فى تلك اللحظات بالذات أن تدخن لفافة تبغ، لولا أنها جاءت، استكمالاً للدور، إلى المبنى دون لفافات تبغ . . .

فاكتست ملامحها بطبقة صعبة من الأسى . . . وراحت تنتظر، وكانت موقنة الآن أن هناك من يرقبها خفية !!

***

كانت الدقائق التى غاب فيهاالملازم فريسبى قليلة، لكنها كانت بالنسبة لارمجارد بدت وكأنها بلا نهاية . . . حقاً، لقد سار كل شئ على مايرام، ولكن. . . من عساه يكون هذا المسئول الذى ستواجهه ؟! . . . هل هو من ذلك النوع الذى يمثل الشك خمسة وتسعين فى المائة من خلايا عقله . . . أم تراه من ذلك النوع الذى سيتجاوب مع قصتها التى وضعت منذ أسبوع فى مكتب أرنست و ليبر ؟! فى برلين الشرقية ؟!

ولا أحد يعرف ما الذى دار بين الملازم فريسبى وبين رؤسائه، ما الذى قاله وما هو الحوار الذى دار بينه وبينهم. . . لكن الثابت أنه عاد بعد خمس عشرة دقيقة مع اثنين: أحدهما نقيب، والآخر رائد!

كان النقيب شاباً متجهماً. قصير الشعر، حاد الملامح، وكان هو أول من دخل إلى الغرفة. . . تقدم خطوتين مفسحاً الطريق لمن سيدخل بعده، ثم توقف وراح يتفحصها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها . . . وبالرغم من أن جلستها كانت كفيلة بأن تلفت أنظار أى رجل مهما كانت نظرته للمرأة . . . إلا أن النقيب « إدوارد رورك » ــ وهذا هو اسمه ــ لم يبد عليه أنه شاهد إنساناً . . . فأدركت ارمجارد على الفور، أن مثل هذا النوع من الضباط لابد وأن يكون من أبناء الشمال، بالتحديد من ولاية ماساشوستس حيث سلالة الأنجلو ساكسون المتميزة، والذين تلقوا قدراً كافياً من التعليم والتثقيف يجعلهم ينظرون إلى الأجناس الأخرى باستعلاء لا يحاولون إخفاءه

. . . هكذا تعلمت ارمجارد فى رحلتها التدريبية تلك، وهكذا نبهوها إلى أن هذا النوع من الرجال، من العسير كبح جماحهم . . . لا لشئ، إلا لأنهم فقط، يشعرون أنه فوق مستوى الآخرين . . . ثم . . . ثم إنه فى النهاية، بدا لها قريب الشبه. إلى حد بعيد من هؤلاء الذين يستعين بهم أرنست

و وليبر، هؤلاء الذين يبدون وكأنهم تجردوا من كل ما يمت إلى الانسانية بصلة!

وعلى النقيض من النقيب إدوارد رورك ، كان الرائد وليم اسكاربورو.

فلأول وهلة أدركت ارمجارد أنها أمام رجل جاء من الولايات الجنوبية . . . وشت بذلك ملامحه الضخمة، وابتسامته تلك التى لا تكلف فيها، ونظرته الفاحصة فى جوع لا يخفى . . . ولقد تقدم منها فور دخوله إلى الغرفة ماداً يده نحوها مصافحاً . . . وسرعان ما تحدث عن ربيع برلين وأزهاره التى تتفتح مبكراً . . . ثم سحب مقعداً وجلس قبالتها فى بساطة، وهو يمد بصره عبر زجاج النافذة نحو أضواء المدينة التى كانت تتلألأ فى ظلمة الليل .

أما الملازم فريسبى، فلقد انتحى جانباً، وقف إلى جوار النافذة واستند بكتفه إلى الجدار وراح يرقب ما يحدث أمامه فى صمت .

قال الرائد اسكاربورو فاتحاً مجرى الحديث :

« فراو شميدت . . . لقد عرفت أن لديك ما تريدين الإدلاء به إلينا! » .

تكسرت أهدابها أمام نظراته المقتحمة، قالت فى شبه همس وقد اضطرب صوتها:

« أحب بداية أن أعتذر عن لغتى الإنجليزية الركيكة . . . فهل أستطيع

الاستعانة فى بعض الأحيان بلغتى الألمانية كى أوضح ما أريد قوله بالضبط؟! » .

قا لسكاربورو وهو يومئ نحو فريسبى :

« إن الملازم فريسبى يتقن الألمانية كأحد أبنائها! »

رمت فريسبى بنظرة خاطفة اعتدل لها الشاب فى وقفته ثم قالت :

« حسن ... لقد ترددت طويلاً فى المجئ إليكم ... ولابد لى من الاعتراف منذ البداية، وحتى لا تختلط الأمور... إنى المانية متعصبة ! ».

الآن فقط اختار النقيب رورك لنفسه مقعداً حمله إلى ركن بعيد يستطيع منه أن يكشف كل جوانب الغرفة وجلس عليه ، وأدركت ارمجارد أنه من مكانه هذا يستطيع أن يقيس حركاتها وسكناتها بدقة شديدة ...كما أدركت أن اليقظة هى الطريق الوحيد لنجاح مهمتها ...

« فى البداية أحب أن أقول إنى شديدة الإعجاب بمستشارنا اديناور ...وكان من الواجب ان الجأ إلى حكومتى ، لولا أنى، بعد تفكير طال، أدركت ان المساعدة الحقيقية سوف تأتينى من ناحيتكم! ».

لم يكن فيما قالته جديد أو مهم، لذلك فلقد كان الصمت هو الجواب الوحيد الذى حظيت به من الرجال الثلاثة ... ارتجفت يداها وهى تردف :

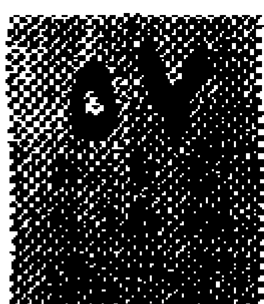
« إنى آتية من الناحية الأخرى من السور !! ».

هنا اعتدل الرائد سكاربور رافعاً حاجبيه فى دهشة، فواجهته مدافعة :

« أنت تعلم يا سيدى أنه ليس من الصعب على أحد أن يتخطى السور مهما كانت الحراسة مشددة هنا أو هناك! » .

لاحت على جانب فم سكاربورو ابتسامة تشجيع فأردفت :

«إنى أكره الروس ! ».



ولم تجد ارمجارد أى رد فعل لما قالته فأضافت :

« إن ما فعله الروس بعائلتى من البشاعة إلى حد أنى على استعداد لأن أفعل أى شئ للانتقام منهم ! ».

هنا ... لمحت ارمجارد بشائر تجاوب من الرجال الثلاثة الذين بدوا وكأن عيونهم قد تسمرت فوق وجهها ... وإذا بصدرها يجيش بالانفعالات فجأة، وإذا هى تستجلب موهبتها القديمة فى التمثيل ... وإذا الدمع يتصاعد إلى عينيها ، وإذا هى تحاول الاستمرار فى الحديث فلا تستطيع ... وإذا بالرائد سكاربورو تأخذه النخوة فيقدم لها لفافة تبغ، وإذا عيناها تتعلقان بوجهه فى عرفان، وتسقط منها دمعة، وترتجف يدها وهى تتناول اللفافة، وإذا الملازم فريسبى يتقدم كى يشعل لها السيجارة، وإذا هى تجذب نفساً عميقاً منها، وكان النقيب رورك يحدجها الآن بنظرة ثابتة وقد استغرق فى التأمل... فوجهت اليه نظراتها المبللة بالدمع وهى تقول :

« أيها السادة ... لقد كنت فى التاسعة عشرة من عمرى عندما التحقت بالجامعة فى المنطقة التى يحتلها السوفييت !! ».

ران الصمت على الغرفة لثوان قالت بعدها :

« أرجو أن تدركوا أنى كنت فتاة ريفية صغيرة السن قليلة التجربة ... وكان طبيعياً أن يحدث اتصال بينى وبين رجل توهمت أنى أحبه، بل ظننت فى لحظات أنى خلقت من أجله ... وكان ... وكان طبيعياً أن أظن أن الرجل الذى ملك على حياتى ومشاعرى، يبادلنى نفس الحب، ولكن ... ... »

توقفت ارمجارد شميدت عن الحديث غير قادرة على الاستمرار، وراح الدمع

يتساقط من عينيها، وبدت وكأنها تحاول السيطرة على مشاعرها، أخرجت من حقيبة يدها منديلاً راحت تجفف به دمعها ... ولقد مضت دقائق قبل أن تسيطر على انفعالاتها ... وهنا، جاء صوت النقيب رورك متسائلاً :

« هل نستطيع أن نعرف اسم هذا الرجل ؟! ».

هنا حانت لحظة الخطر!

كانت ارمجارد شميدت تعلم أنها الآن، والآن بالذات ... بدأت تخوض حقلاً من الألغام، ولذلك، فلقد كان الحذر واجباً، بعد ثوان بدت فيها مترددة، قالت :

« إن اسمه دكتور فرانز لاين! ».

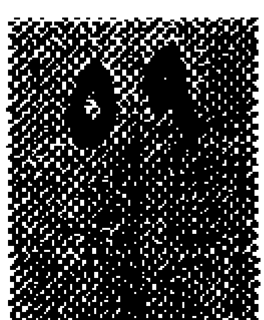
لم يبد على أي منهم أن الاسم يعني بالنسبة إليهم شيئاً، فأوضحت :

« كان أستاذي في مادة التاريخ ... لكنه لم يسلك معي سلوك الأستاذ ... كان ممتلئاً بالحيوية، جياش العاطفة، محباً للموسيقى والأدب والفن عاشقاً للحياة ... لقد فتح لي فرانز عالماً واسعاً رحباً تغرد فيه الإنسانية ... لكن، لكني لم أكن أعلم أنه شيوعي !! ».

صمتت ارمجار فران على الغرفة سكون ثقيل، راحت تجذب من سيجارتها أنفاساً متلاحقة حتى أتت عليها فقدم لها سكاربورو سيجارة أخرى ... بعد أن أشعلتها ، استقام صوتها وهي تقول وكأنها تتحدث إلى أصدقاء تطمئن إليهم وتبثهم همها :

« ماذا أقول لكم ... إنها نفس القصة القديمة المعادة ... عشاء لشخصين وموسيقى شجية ، وبعض الشراب يعقبه دوار وربما شلل في التفكير ... ثم ... ثم ... ... ».

تكسرت أهدابها كعذراء ولزمت الصمت وإن كانت عيناها ترصدان تأثير



حديثها على الرجال . . . ولقد كان الرائد سكاربورو هو أكثرهم تأثراً بالقصة . . . وعندما حولت بصرها نحو النقيب رورك، لم تجد أى تعبير على وجهه . . . أما الملازم فريسبى، فلقد أدركت حيرته البالغة، فيما بين تأثر هذا وجمود ذاك . . . فابتسمت فى وهن وهى تكمل :

«وكما يحدث فى الأفلام والقصص، استيقظت فى الصباح على حقيقة رهيبة !».

هم سكاربورو بالحديث لكنها عاجلته فى حماس مفاجئ :

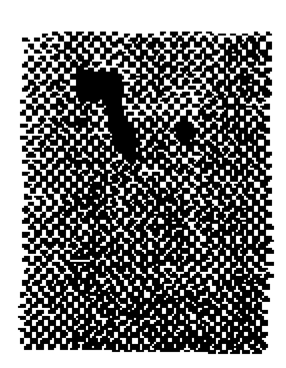
« لكن فرانز كان رقيقاً وكان طيباً ومحباً فى نفس الوقت . . . أقبل على وداعبنى وقدم لى القهوة وأنا فى الفراش ثم أتانى بالإفطار وعاملنى كملكة . . . غير أنه راح يلقى على محاضرة بليغة! ».

« محاضرة ؟! ».

كان هذا سؤال من سكاربورو فأردفت :

« نعم محاضرة عن أمثالنا من المثقفين التقدميين، نحن أهل العالم الحديث الذى لا يبالى بمبادئ الأخلاق البرجوازية والتقاليد البالية والمظاهر الكاذبة . . . كان حديثه مليئاً بالمرارة والدفء . . . ولم يكن من الممكن إلا أن أقتنع بكل كلمة مما قال . . . بل إنى، حتى الآن، وإذا ما استعدت ذلك الصباح، أجدنى ميالة إلى تصديقه! ».

الآن . . . وبعد نظرة فاحصة، أدركت ارمجارد أنها استطاعت أن تنفذ إلى عواطف الرجال الثلاثة . . . كان أكثرهم تأثراً هو الرائد وليم سكاربورو، كان يبدو وكأنه يشاهد فيلماً رومانسياً شد انتباهه تماماً، أما النقيب إدوارد رورك فلقد تخلص من تحفظه ومال نحوها مرتكزاً بذراعيه فوق ركبتيه واستغرق فى الاستماع، وكان واضحاً ان فريسبى المسكين قد بلغ تأثره مداه !



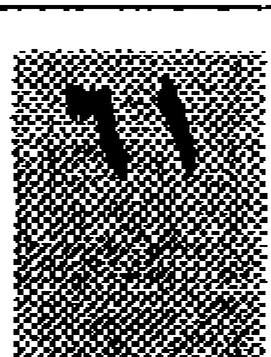
الآن . . . صفت نظراتها وكأنها أزاحت من فوق كتفيها عبئاً كان يثقل كاهلها . . . وعندما عادت إلى الحديث من جديد، كانت تشعر بما تشعر به الممثلة إذا ما وقفت على خشبة المسرح وقد سيطرت بأدائها على جمهور المشاهدين، فتجلت براعتها فى الأداء وهى تقول :

« لكم أن تتصوروا كم كنت سعيدة خلال الشهور التى تلت ذلك . . . كان حبى له يزداد يوماً بعد يوم . . . كنا نسافر فى رحلات خلوية، وننام فى الخيام أو الأكواخ أو فى بيوت الطلبة . . . كنا نقضى العطلات فى الغابات ننعم بالحب والطبيعة معاً، ولم يكن هناك جدال فى أننا، ذات يوم ، سوف نتزوج . . . حقاً أن أحدنا لم يفاتح الآخر فى هذا الأمر، ولكنى كنت موقنة أشد ما يكون اليقين أنه سوف يحدث . . . وطوال تلك الشهور كان دائم الحديث عن الشيوعية، والماركسية كفلسفة . . . بدا فرانز وكأنه يقودنى إلى الجنة، ولقد كان مقنعاً رغم أن تربيتى كانت تختلف تماماً عما كان يذهب إليه . . . فأنا من الطبقة الوسطى التى يطلقون عليها اسم البرجوازية، بل إن شقيقى كان قسيساً لكن فرانز أقنعنى أن الدين أفيون الشعوب . . . حتى جاء يوم ، ولا أدرى كيف . . . أصبحت فيه شيوعية!! ».

الآن . . . وعندما صمتت ارمجارد . . . كان للصمت معنى، حتى إذا عادت إلى الحديث، ألقت بقنبلة :

« ومضت ستة أشهر . . . وإذا بأستاذى وحبيبى يطلب منى أن أمارس الحب مع صديق له !! ».

هنا . . . اعتدل الضباط الثلاثة، وكأن مساً كهربائياً قد أصابهم.





لايملك الإنسان نفسه إلا أن يتوقف كي يلقى نظرة على الصورة التى بدأت تتشكل لمسرح هذه الأحداث ... وإذا كانت هذه القصة قد وقعت فى عام ١٩٥٨ عندما كان الصراع البارد مشتعلاً بين الشرق والغرب ... فهل يستطيع أحد أن يتصور بعد أن سقط النظام فى ألمانيا الشرقية، بل بعد أن سقط الاتحاد السوفيتي وتفكك، ما هو مصير جيش العملاء الذين كانوا يعملون ضد هذا الشطر أو ذاك ؟!

وإذا كانت عملية مثل ارمجارد شميدت قد سقطت وكشفت، فماذا عن آلاف غيرها لم يكتشفوا، وظلوا يعملون فى ظل حتى اللحظات الأخيرة؟! ... ما هو مصيرهم؟ ... وكيف ستدبر الدولة الجديدة أمرها معهم لو أنها عرفت شيئاً عن بعض منهم ؟!

إن قائمة العملاء الذين كانوا يعملون ضد هذا الشطر أو ذاك من ألمانيا. والذين اكتشف أمرهم وأعلن عنهم، تبدو بكل المقاييس، وعبرما يقرب من نصف قرن من الزمان، غير عادية... وعلى كل، فإن التجسس بين الدول مشروع كل من وجهة نظرة ... وهو مثله مثل أى نشاط إنسانى على وجه الأرض ...لقد كانت القصة التى تحكيها « ارمجارد شميدت» للرجال الثلاثة الذين كانوا يحملقون فيها، ويدرسون ـ بالقطع ـ كل حركة وكل

سكنة تبدر مها، وكل كلمة تقولها . . . محبوكة إلى أقصى حد، متقنة تماماً، قصة وضعت فى بساطة مذهلة كى تخدع عقولاً دربت على ألا تخدع . . . ورغم قدم القصة، إلا أن تأثيرها لم يفقد رونقه . . . ولقد اعتدل الضباط الثلاثة أمام تلك السيدة عندما قالت إن الرجل الذى وهبته حبها وعقلها،والذى آمنت بكل كلمة قالها . . . عندما قالت إن أستاذها فرانز لاين ق، طلب منها أن تمارس الحب مع صديق له ... اعتدل الضباط الثلاثة وقد استفزهم الأمر، إلى الحد الذى دفع رجلاً مثل النقيب إدوارد رورك - الذى احست ارمجارد من الوهلة الأولى بأنه من ذلك النوع من الرجال الذين تصعب خديعتهم ـ دفعته إلى أن يصيح فى حدة، وكأنه يرفض الاستسلام لعاطفية القصة ورومانسيتها:

« هل نستطيع أن نعرف اسم هذا الصديق يا سيدتى؟! ».

ردت ارمجارد بصوت ثابت ونبرات واضحة :

« ويرنر فرانكوفر !! ».

ولقد هوى الاسم فوق رؤوس الرجال كالصاعقة . . . ران الصمت تماماً وراح الرجال يحملقون فى وجه السيدة وقد بلغت الإثارة ذروتها . . . كانت الغرفة معبقة بدخان التبغ الذى كانت ارمجارد تحرق لفافاته واحدة بعد الأخرى . . . وإذا كان اسم فرانز لاين لم يكن يعنى شيئاً بالنسبة إليهم . . . فلقد كانت ارمجارد تعلم هذا جيداً . . . لكنها كانت تعلم أيضاً أن اسم « فرانكوفر » بالذات يعنى بالنسبة لهم الكثير . . . بل والكثير جداً ! ذلك أن ويرنر فرانكوفر كان واحداً من رجال المخابرات الأمريكية فى ألمانيا

الشرقية، وكانت شبكته مكونة من مجموعة من الشخصيات المدربين على مستوى رفيع، والذين أسدوا للأمريكيين خدمات بالغة الأهمية، ولذلك . . . فلقد كان الإيقاع بفرانكوفر ورجاله ضربة بالغة العنف وجهت إلى النشاط الأمريكى على الناحية الأخرى من السور . . . خاصة، وأن مذبحة كانت قد تمت عقب اعتقالهم بإعدام عدد لابأس به منهم، مما ترك عند الأمريكيين جرحاً عميقاً . . . وكانت معرفة صاحب الوشاية التى كشفت عن رجلهم. هدفاً من أهدافهم طوال أعوام مضت !!

ران الصمت طويلاً على الغرفة، تبادل الرائد سكاربور نظرة خاطفة مع النقيب رورك . . . ولأول مرة يتحرك الملازم فريسبى من مكانة كى يجلس على مقعد . . . أما ارمجارد. فلقد كانت الآن منكسة الرأس، شاحبة الوجه، مرتجفة الأصابع . . . ولقد جاءها صوت النقيب رورك محثاً إياها:

« استمرى من فضلك ! ».

مضت ثوان قبل أن تعود إلى الحديث :

« قال لى فرانز إنه بوصفه يعمل فى المخابرات السوفيتية، فهو فى حاجة إلى مساعدتى ضد ويرنر فرانكوفر الذى كان زميلاً لى فى إحدى مراحل دراستى الجامعية! ».

«وهل لبيت طلب فرانز ؟! ».

هتفت فى احتجاج وقد ارتجف صوتها:

« وهل كان أمامى طريق آخر؟! ».

مال سكاربور نحوها متسائلاً :

« ولكن لماذا بالله عليك؟! ».

تدفق الدمع إلى عينى أرمجارد شميدت بسرعة غريبة، ارتجفت السيجارة بين أصابعها ـ تمتمت :

«إننى أسأل نفسى هذا السؤال حتى اليوم دون أن أجد له جواباً شافياً! ».

ساد الصمت مرة أخرى ، حتى إذا كفكفت دمعها عادت إلى الحديث قائلة :

« لم أكن أستطيع أن أرفض لفرانز طلباً! ».

« لماذا ؟! »

« لأنى عندما حاولت مناقشة الأمر معه، عندما ذكرته بأن فرانكوفر كان زميلى فى الجامعة، هددنى بإبلاغ المخابرات بأنى عدوة للشعب وللدولة!! ».

كان منطقها سليماً إلى حد بعيد بالنسبة للرجال الثلاثة . . . ذلك أن غالبية الذين لجأوا إلى الغرب من الشرق، كانوا يرددون نفس الجملة التى كانت تكفى للقبض على أى إنسان ومحاكمته أو وضعه فى المعتقل !!

لكنها فى محاولة لتأكيد هذا المنطق أضافت :

« ولأنه وعدنى بتهريب أمى إلى ألمانيا الغربية ! ».

طالعتها نظرات التساؤل فى عيون الرجال فأدركت أنها الآن فى أشد الحاجة إلى موهبتها فى التمثيل . . وهكذا استطردت وكأنها تقف على خشبة المسرح :

« كانت أمى قد ترملت بعد وفاة أبى فى الحرب . . . وكنا قد وضعنا خططنا للانتقال إلى ألمانيا الغربية كى تستقر فى هيدل برج أو كولونيا ، لأن

لنا أقارب يسكنون فى أراضى الراين ... وكان فرانز قد وعدنى باستخراج تصريح لأمى كى تعبر السور ... على أن يساعدنى بعد ذلك على اللحاق بها!!».

كانت القصة التى تحكيها ارمجارد الآن عادية ومألوفة لضابط المخابرات الأمريكية، ذلك أنه فى تلك السنوات التى تلت الحرب العالمية الثانية، كان هناك مئات، بل آلاف القصص التى تبدو جميعها متشابهة ومكررة. والتى كانت كلها حقيقية ... ولقد ظن الرجال أن ما كانت تقصه عليهم تلك السيدة، هو ذروة ما أصابها من سوء ... غير أنها كانت تحتفظ لهم بالمزيد من المفاجآت عندما قالت وقد تكسرت أهدابها:

« ولكن الغريب فى الأمر أنى أصبحت صديقة حميمة لويرنر فرانكوفر فيما تلا ذلك من أيام!! ».

مرة أخرى عاد الرجال إلى الانتباه الشديد ... ولقد بدا لارمجاردفى وضوح بالغ أن قصة فرانكوفر قد استحوذت على اهتمامهم ... ولذلك، فلقد راحت تبسط أمامهم تفاصيل القصة فى روية :

« فى حقيقة الأمر، لقد توطدت علاقتى بويرنر منذ اللقاء الأول! ».

« كيف ؟! » .

هكذا سألها النقيب رورك فى جفاء، فهتفت فى عصبية :

« لست أدرى كيف أشرح الأمر، إنى أشعر بالخجل! » .

« استمرى من فضلك ! ».

« لقد وجدت نفسى فجأة وقد ارتبطت بفرانكوفر دون أن أتنبه للأمر! ».

قبل أن يلتقط أحدهم أنفاسه، أضافت :

« لقد وقعت في حبه! ».

« بمثل هذه البساطة ؟! » .

كان سكاربور هو الذى ألقى عليها بالسؤال، فأجابت :

« لقد اكتشفت أنه رجل مبادئ وخلق ولم يكن جاسوساً كما صوره لى فرانز لاين! ».

عاد النقيب رورك إلى أسئلته الجافة فى سخرية:

« كيف ومتى اكتشفت هذه الحقيقة؟! ».

«كان ويرنر مواطناً ألمانياً شريفاً، وكان حلم حياته أن يرى ألمانيا وقد توحدت من جديد! ».

توقفت عن الحديث كى ترقب رد فعل حديثها على الرجال، ثم أردفت:

«كان يمثل النقاء الذى افتقدته فى علاقتى مع لاين! ».

وفجأة بدا وكأنها فقدت أعصابها تماماً فلقد صاحت :

« لكنه من الصعب على أن أكمل، من العسير أن أعترف بالحقيقة؟! ».

« أية حقيقة؟! ».

« إنها حقيقة بشعة! ».

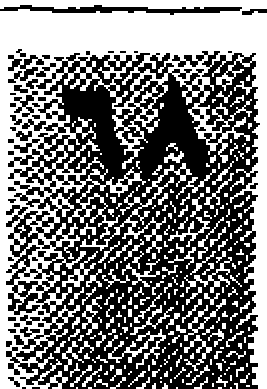
« أية حقيقة ؟! ».

« لقد تجسست على فرانكوفر ! ».

« لحساب لاين؟! ».

« أنا التى أوقعت به وبرجاله! ».

كان لما قالته صدى قنبلة انفجرت فى المكان . . . بدا الأمر مذهلاً، بعيداً عن التصور . . . لقد كان الرجال، وعلى مدى ما يقرب من عامين،



يحاولون معرفة السر فى كشف شبكة فرانكوفر، وها هى سيدة جميلة تأتى إليهم بقدميها، كى تعترف بأنها هى التى كانت وراء تلك الكارثة التى حاقت بهم!

لم يوجه إليها أحدهم سؤالاً، فأضافت وقد فاض الدمع من عينيها:

«لقد حصلت على أسماء ثمانى من الوحدات السرية التى كانت تقاوم الاحتلال السوڤيتى!».

« معنى هذا . . . . ».

« معنى هذا أنى خنت الرجل الذى أحببته حقاً !».

وأصبح للصمت الآن معنى أبلغ من أى حديث . . . أخذت دموع ارمجارد تنحدر من عينيها مدراراً . . . وكان الموقف عصيباً بحق ، ومن خلال الدمع راحت تضيف:

« لاأستطيع أن أصور لكم كم تعذبت !».

« ألم تشعرى بتأنيب الضمير؟!».

كان الرائد سكاربورو هو صاحب السؤال فهتفت به :

« ولماذا ترانى أجلس الآن فى هذه الغرفة ؟!».

« هل تحتاجين لفنجان من القهوة ؟!» .

وكأنها لم تسمع السؤال استطردت من خلال شهقاتها:

« ضغط على تأنيب الضمير فانضممت إلى فرانكوفر . . . أردت التكفير عن وشايتى بأصدقائى تحت ضغط الحزن والرغبة فى الهرب إلى الغرب!».

عندما أمسكت عن الكلام كى تكفكف دمعها كانت نظرتهم تشى

بعشرات الأسئلة . . . لكنها راحت تكرر :

« لقد قمت بالكثير من العمليات فى الداخل ، وكتبت الكثير من التقارير عن تلك المرحلة ! ».

« تقارير ؟! ».

« ابحثوا فى ملفاتكم ولسوف تجدون أنى أذكر الحقيقة ! ».

ولم يكونوا فى حاجة إلى البحث فى الملفات، فلقد كانت تذكر الحقيقة فعلاً . . . كانت هناك تقارير كتبت وعمليات لحسابهم فى الداخل قبل القبض على فرانكوفر !.

***

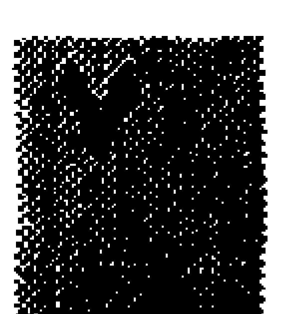
مهما كان الأمر ، ومهما كان موقف الإنسان من القضية أو تعاطفه مع هذا أوذاك . . . إلا أننا لانستطيع لا أن نعجب بهذه العقلية الشيطانية التى وضعت تفاصيل تلك القصة الخيالية التى بنيت فوق واقع حدث فعلاً، بل، ومدعمة بحقائق لاسبيل إلى إنكارها !

هذا من ناحية التخطيط الدقيق وحساب كل كبيرة وصغيرة، وكل شاردة و واردة، وكل ما يمكن أن يجول فى خاطر رجال المخابرات الأمريكية وكل ما يملكون أيضاً من معلومات!!

أما من ناحية ارمجارد شميدت نفسها ، فليس هناك أدنى شك فى عبقرية هذه السيدة التى كانت تخوض الآن فى حقول من ألغام متفجرة . . . كانت كل خطوة تخطوها تمثل خطراً داهماً يكشف أمرها . . . وكان طوق نجاتها الوحيد ، هو أداؤها، وقدرتها على التأثير فيمن يستمع إليها!

وعلى كل . . . فبعد فترة من الصمت عاد الرائد سكاربورو يسأل :

« وهل أوفى فرانز لاين بوعوده؟! » .



كان السؤال فى ظاهره بسيطاً، لكن ارمجارد أدركت أى مزالق كان يدفعها إليها هذا الجندى الظاهر الطيبة، غير أنها كانت مستعدة فأجابت :

« جزء منها فقط! ».

« مثل؟! ».

« لقد أمدنى ببعض المال! ».

« هل هذا هو كل شئ؟! » .

« وأمدنى بالأوراق التى ساعدتنى على الخروج من المنطقة السوڤيتية! ».

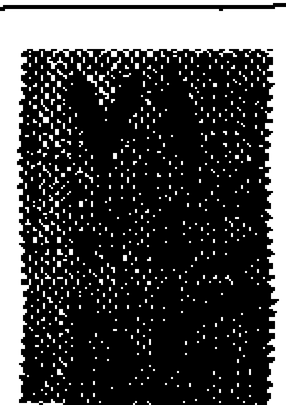
« ومتى كان ذلك ؟! ».

مما لاشك فيه أنها كانت مزودة بتواريخ بالغة الدقة، ولكن ... كانت هناك فترة طولها ثلاثة أشهر، تلك الأشهر التى عاشتها فى الاتحاد السوڤيتى للتدريب على فنون التجسس ... وكانت هذه الفترة بالذات تمثل لها أرقاً حقيقياً ... ثم ...

ثم هناك تلك القاعدة الغريبة فى هذا العالم المركب ، والتى تقول، إنه كلما كانت القصة مستوفاة لجميع الشروط، وكلما كانت دقيقة، كانت أقرب إلى التلفيق منها إلى الحقيقة ... وكان معنى هذا ، أن ارمجارد لابد وأن تضع فى اعتبارها أن بعضاً من الغموض فى القصة، سوف يجعلها أقرب إلى الحقيقة ... وهكذا، وما أن سألها وليم سكاربورو سؤاله هذا حتى أجابت :

« من الصعب على بعد كل هذه الأحداث التى مرت أن أتذكر التاريخ على وجه الدقة... وإن كنت أستطيع القول إن هذا حدث فى شهر أكتوبر! ».

« فى أى عام حدث هذا ؟! » .



« لا . . . لا . . . ليس فى أكتوبر، لقد تذكرت الآن، كان هذا فى نوفمبر! ».

فى إلحاح عاد سكاربورو إلى السؤال :

« فى أى عام ؟! ».

« ١٩٥٢ ».

كان الأمر الآن يحتاج إلى توثيق . . . لذلك، فلقد التفت سكاربورو نحو النقيب رورك :

« أعتقد أن الوقت قد حان لتدوين هذه الأقوال! » .

« يا إلهى! ».

هكذا هتفت فى جزع، فاستدار برأسه نحوها :

« ماذا هنالك ؟! ».

« هل يعنى هذا أنى سوف أعيد سرد كل هذه المعلومات مرة أخرى! ».

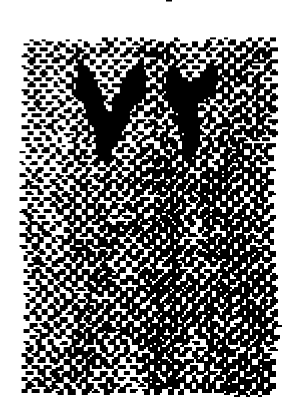
«ليس بالضرورة، وإن كانت هناك بعض الأسئلة التى نرى ضرورة الإجابة عليها! ».

قبل أن تنطق بكلمة، نظر فى ساعة يده وخاطب فريسبى :

« لم لا تستدعى السكرتيرة ؟! ».

***

عندما دخلت السكرتيرة، بدت لارمجارد أقرب إلى الرجال منها إلى السيدات . . . كانت طويلة القامة، متجهمة الملامح، مزمومة الشفتين . . . وكانت تحمل فى يدها آلة كاتبة صغيرة، سرعان ما وضعتها فوق المائدة الوحيدة فى الغرفة، وجلست إليها ــ دون كلمة ـ ورفعت رأسها علامة الاستعداد !



وكان الذى تولى توجيه الأسئلة هو النقيب رورك :

« متى دخلت برلين الغربية؟! » .

«منذ بضعة أيام ؟!».

« هل تذكرين التاريخ بالضبط ؟!».

« نعم ... كان هذا فى السابع عشر من يناير الحالى ! ».

« وكيف غادرت هال؟!».

« بالقطار!».

« متى كان ذلك؟!».

« فى أحد أيام نوفمبر الأخيرة!».

« ألا تذكرين التاريخ ؟!».

« قد أستطيع لو أنك منحتنى بعضاً من الوقت ! ».

«وهل خرجت بموافقة فرانز لاين ؟!».

«خرجت بموافقته ولكن دون علمه ! ».

سألها سكاربورو:

« كيف كان هذا ؟!».

« لقد انتهزت فرصة انشغاله فى بعض الأمور وطرحت عليه فكرة سفرى إلى برلين الشرقية ! ».

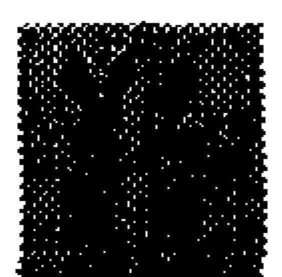
« وهل وافق على الفور ؟!».

« قلت إنه كان مشغولاً، ثم إن الأمر لم يكن يعنيه فى كثير أو قليل ... ثم، ثم أنى زعمت أنى ذاهبة لحضور اجتماع طلابى ! ».

« ألم يعلم بموعد سفرك؟!».

« لم يسألنى ... لكنه طلب منى شيئاً آخر! ».

« ما هو ؟! ».
« أن أحاول العثور على وظيفة فى إحدى دور النشر! ».
« ولماذا دور النشر ؟! ».
« كى أراقب هؤلاء الكتاب الذين وفدوا إلى البلاد من نيويورك! ».
« مثل من ؟! ».
« ستيفن هايم وألفريد كانزوفيز! ».
« وكيف عبرت إلى برلين الغربية؟! ».
« فى الليل ... تحت جنح الظلام! ».
« من أى منفذ ؟! ».
ضحكت ضحكة خفيفة وهى تقول:
«ليس الأمر صعباً لمن يعرف برلين جيداً ! ».
« ومتى التحقت بجامعة هال؟! ».
«سنة ١٩٤٩ ».
هم النقيب رورك بسؤالها فابتسمت مقاطعة :
« أرجو ألا تسألنى عن عمرى ! ».
ضحك الرجال رغماً عنهم، فخفف الضحك من وطأة الموقف.
« هل حصلت على درجة جامعية؟! ».
« تركت الجامعة بعد ثلاثة سنوات ولم أستطع أن أكمل تعليمى! ».
« لماذا ؟! ».
«لأنى أردت الهرب، ولأن كل الذى حكيتـه لكم قد وقع ... ولأنى للمرة الثالثة أرغب فى إتمام دراستى فى هيدلبرج! ».
« ولماذا أردت الهرب إلى الغرب؟! ».



صاحت مستنكرة :

« ألم أجب على هذا السؤال يا سيدى ؟! ».

فى برود قال روك :

« ألا تستطيعين الإجابة مرة ثانية ؟! ».

بدت عليها العصبية وهى تقول :

« لأنى أريد التكفير عن ذنبى، فلقد تم القبض على من وشيت بهم فى ليلة واحدة! ».

وقبل أن يسأل سؤالاً آخر أضافت:

« وأعتقد أنكم تعرفون هذا جيداً! ».

فجأة تصاعد الدمع من عينيها وتقلصت ملامحها وهى تقول:

« ألا تجد من كانت مثلى الرحمة فى أى مكان ؟! ».

كانت الآن فى ذروة تألقها كممثلة، كانت تبدو ملتاعة حقاً، بل بدت وكأنها تنهار لحظة بعد أخرى ... فنظر الرائد سكاربورو فى ساعة يده قائلاً :

«يكفى هذا الآن! ».

وكانت هذه اللفتة بالذات ، مثل طوق نجاة تعلقت به أرمجارد شميدت ... فلقد كانت الآن ، والآن بالذات، فى أشد الحاجة لأن تلتقط أنفاسها ، وترتب أفكارها ، استعداداً لجولة أخرى كانت موقنة من أنها ستكون أصعب من هذه الجولة .



ليس من السهل التكهن بما كان يفكر فيه رجال المخابرات الأمريكية، أو معرفة شئ عن طبيعة الحوار الذى دار فى الغرفة المغلقة ... كما أنه ليس من السهل معرفة الخطة التى وضعوها لمعرفة الحقيقة عن هذه السيدة التى جاءت إليهم معترفة بجرم عذبهم طويلاً، معرضة نفسها للخطر ... لكن الثابت أن أرمجارد نفسها لم تعرف للنوم طعماً فى تلك الليلة إلا قليلاً... فلقد كان عليها أن تستعد لجولة جديدة فى صباح اليوم التالى، ولابد أنها كانت تفكر فى الأسلوب الذى يجب عليها اتباعه، وهل تستمر فيما كانت تتظاهر به، أم تتسلح بقليل من المرح كى تخفف عن نفسها عبء نظراتهم التى كانت تفيض بالشك !!

كانت موقنة منذ غادرتهم، أنها مراقبة مراقبة دقيقة من المخابرات الأمريكية، وأنهم يحصون عليها كل حركة وكل سكنة ... ولذلك ، فعندما بدأت الجولة الثانية فى اليوم التالى، وعندما قدموا لها فنجاناً من القهوة السوداء . راحت تحدثهم عن المتعة التى أصبحت تشعر بها كلما احتست قهوة مصنوعة من بن حقيقى ... ثم راحت تسخر من نوع البن الذى كانت تحتسيه فى الشرق، وكيف كان طعمه غريباً ... ولقد تجاوب معها الرجال الثلاثة، ابتسموا وضحكوا ودهشوا وسألوا وهى تقص عليهم

كيف أنها كانت ، منذ وصولوها إلى برلين الغربية، لا تمل من الوقوف أمام الفترينات ومشاهدة الملابس والفساتين التى طالما حملت بها هنالك ، على الجانب الآخر من السور!

غير أنها فجأة، وبدون مقاومات،قطعت حديثها المرح هذا كى تطلب من السكرتيرة، التى كانت تجلس الآن مستعدة لتدوين أقوالها، قلما و ورقة ... دهشت الفتاة الجادة، نظرت إلى الرائد سكاربورو الذى أومأ إليها أن تلبى لها طلبها!

ولقد أمسكت ارمجارد بالورقة والقلم وراحت تخط بعض الأسماء وهى تقول : أنه لم يكن من الصعب عليها بطبيعة الحال أن تجد وظيفة فى إحدى دور النشر فى برلين الشرقية ... ثم مدت يدها بالورقة إلى النقيب رورك وهى تردف :

« كان هؤلاء هم المسؤلون عن النشر فى برلين الشرقية حتى يوم مغادرتى لها! ».

كان ارنست و ليبر قد أمدها ببعض الأسماء لأشخاص حقيقيين بطبيعة الحال، ولقد تناول رورك الورقة وألقى عليها نظرة سريعة وهو يسأل:

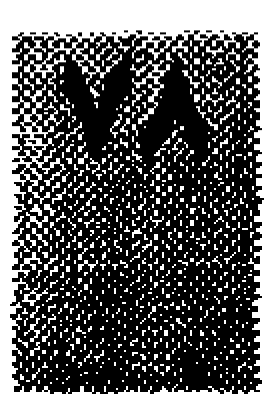
« وماذا كانت وظيفتك هناك بالضبط؟! ».

« كانت مهمتى ترجمة الكتب العلمية والفنية! ».

« من أية لغة؟! ».

كان السؤال يبدو طبيعيا ، لكنه فى نفس الوقت كان ذكيا ... وعلى كل، فلقد جاءت إجابة ارمجارد مدهشة عندما قالت :

« كنت أترجم من الإنجليزية و الفرنسية والروسية ! »



« إذن فأنت تجدين هذه اللغات إجادة تامة! ».

كان السؤال فخاً نصبه لها فابتسمت وهي تجيب :

« نعم أجيدها ، فيما عدا الإنجليزية التى أستعين عادة بقاموس أثناء ترجمتى منها! ».

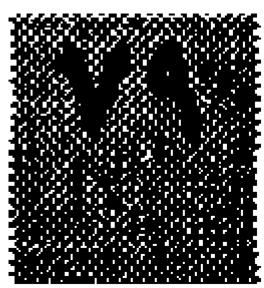
بالقطع لم تكن ارمجارد قد نسيت أنها فى بداية لقائها بالرجال الثلاثة، كانت قد اعتذرت عن ركاكة لغتها الإنجليزية ... ولقد بدت إجابتهامقنعة، لكنها دعمتها بقولها:

«وأحب أن أضيف، أنى أيضاً أستطيع التحدث بالهولندية !»

الآن ... أخذ النقيب رورك يدقق النظرة فى تلك القائمة التى كتبتها ارمجارد عن هؤلاء الذين تعاملت معم فى دار النشر فى برلين الشرقية ... ولقد بدت له كل الأسماء مألوفة، بل ربما كانت أيضاً معروفة لديه ... ولقد ساد الصمت لدقائق طالت، وكانت ارمجارد ترقب هذا النقيب المتجهم الذى ذكرها برجال المخابرات السوفيتية ... كان كل ما يشغل بالها فى تلك اللحظات، هى تلك الشهور الثلاثة التى أمضتها فى الاتحاد السوفيتى، والتى دربت فيها على أحدث وسائل التجسس ... ولقد أحست فى تلك اللحظات بالذات، بالامتنان لهؤلاء الأساتذة الذين دربوها هناك، خاصة هؤلاء الذين دربوها على وسائل التنويم الذاتى إذا ما وضعت تحت اختبار جهاز كشف الكذب، ولقد كانت موقنة، حتى تلك اللحظة، أنها بالقطع سوف توضع فى هذا الاختبار المخيف !!

غير أنها لم تكن تدرى، أن هناك قطبين قد أصدرا حكمهما عليها بالفعل!.

كان القطب الأول ، هو الرائد وليم سكاربورو الذى بدا مقتنعاً أشد ما يكون

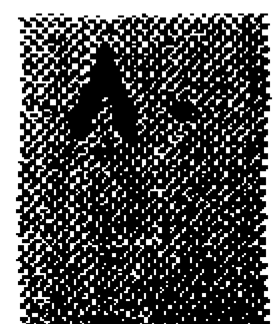


الاقتناع بأنها كانت ضحية من ضحايا السوڤييت والشيوعيين الألمان!

أما القطب الثاني، فهو النقيب وليم رورك الذى كان يرى فيها امرأة غبية، لأنها خدعت بمثل هذه السهولة من رجال مخابرات رأى أنهم دون المستوى بكثير.

كان رأى المستر رورك، أن ارمجارد عميلة باعترافها، وهى عميلة محترفة قضت سنوات فى خدمة المخابرات الشرقية، فكيف لامرأة لها مثل هذه الخبرة، أن تخدع ببساطة ... كان الشك يداعبه بالقطع ... لكن الغريب فى الأمر، أن ارمجارد شميدت كانت تفكر فى نفس الاتجاه وتسلك نفس الطريق ... فلقد كانت تتساءل بينها وبين نفسها : هل من المعقول أن يبتلع هؤلاء الرجال ذلك الطعم الذى ألقت به إليهم ... فلقد بدا لها الأمر الآن، وهى فى قلب المصيدة، باعثاً على الشك حقاً ... وعلى كل، فلأنها كانت مدربة، ولأن تدريبها كان متقناً، فلقد استطاعت أن تخمن مسار تفكير كل رجل على حدة ... ولذلك، ولكى تخفف من الضغط الذى كانت تشعر به، فلقد راحت تلقى عليهم بالسؤال تلو السؤال عن الولايات المتحدة، عن ناطحات السحاب، فيها، عن الأرض والجو و المزارع ودور السينما والمسارح والحرية و...و ...

ولقد استجاب الرائد سكاربورو لأسئلتها، لذلك ... فلقد أخذت تمطره بالأسئلة حول الجنوب الأمريكى وتناقشة فى التفرقة العنصرية ... وعندما شرع الملازم فريسبى فى وصف نيويورك، لم تشعر أنه أضاف كلمة جديدة عما شاهدته فى مجموعة الأفلام التى عرضت أمامها فى الاتحاد السوڤيتى... أحست أنها مشبعة بكل ما فى تلك المدينة الهائلة من معالم



حياة . . . غير أنها، بالرغم من ذلك بدت أمام الرجال الثلاثة، مبهورة الأنفاس مثل طفلة دخلت مدينة للملاهى لأول مرة فى حياتها !

طوال ذلك الوقت ، التزم النقيب رورك بالصمت، واكتفى بمراقبة ما كان يحدث، ولم يعطها جوابا شافياً عن سؤال واحد . . . وهكذا أدركت ارمجارد شميدت ، وكانوا الآن يتناولون طعام الغداء، أنها سوف تخوض معركة لا مفر منها، فراحت تستعد لها!

***

فى الواحدة والنصف، عادت السكرتيرة إلى الغرفة بأوراقها وآلتها الكاتبة.

ولم يكن هناك الكثير مما يمكن أن تضيفه ارمجارد . . . وعندما سألها النقيب رورك عما إذا كانت قد حاولت الاتصال بصديقها ويرنر فرانكوفر، قالت :

« حاولت . . . بل أرسلت إليه بعض طرود الطعام، ولكنها ردت إلىّ مرة أخرى! ».

«ألم تخشى من معرفة لاين بتصرفك هذا ؟ ».

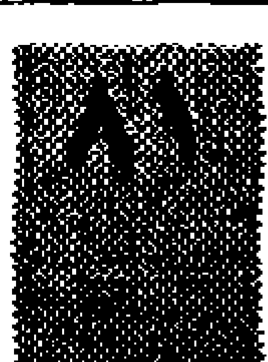
« سيدى النقيب، لاتنس أنى مدربة! ».

« هل لك أن توضحى لنا هذا الأمر! »

« بالقطع كنت أخشى غضب السلطات، لكنى كنت أطلب من فرانز لاين أن يساعدنى ! ».

« يساعدك؟! ».

« نعم».



« على أى شئ ؟! ».

« على إرسال الطعام إلى ويرنر! »

« وهل فعل ؟! »

« ربما لم يحاول! »

« وأين كان ويرنر فى ذلك الوقت ؟! »

« فى أحد السجون طبعاً! »

« هل تعرفين أين هذا السجن؟! ».

« لو كنت أعرف لما كانت هناك مشكلة! »

« ألم يسألك أحد من البوليس أو المخابرات الشيوعية؟! »

« لم يكن هذا ممكناً فلقد كان فرانز لاين على دراية بما أفعله! »

« ألم يمنعك؟! »

«كان يقول أنى عاطفية، وأن بى مس برجوازى ! »

هم رورك بسؤالها لكنها أضافت :

«سيدى النقيب ... أرجو مرة أخرى ألا تنسى أنى كنت واحدة من عملائهم ... وبالطبع لم يكن هذا شفيعاً لى، لكن كان ساتراً لتصرفاتى! ».

« ثم؟! »

« ثم لم يكن أمامى سوى أن أسلك طريقاً آخر لمساعدة فرانكوفر! ».

« ما هو هذا الطريق؟! ».

« أنى أجلس فى إحدى غرفه الآن!! »

قالت ارمجارد ما قالت فتبادل الرجال الثلاثة النظرات ... ذلك أن جملتها

الأخيرة هذه، كانت تحمل معنى بالغ الوضوح . . . كانت جملتها تعنى، أنها مستعدة للتعاون معهم ضد الشرق!!

***

تبادل رورك مع سكاربورو نظرة أدركت ارمجارد بعدها أن اللحظة الفاصلة فى هذه التمثيلية قد حانت . . . كان جوابها بالقطع حاسماً وقاطعاً، لكن رورك رفض التسليم فقال فيما يشبه الجفاء :

« سيدتى . . . هل أستطيع القول بأنك جئت إلينا كى ننقذ صديقك فرانكوفر ؟! ».

كان السؤال مفاجئاً لارمجارد، لكنها أدركت أن اللعب قد حمى وطيسه، وأن عليها أن ترد الضربة بضربة مماثلة وإلا انهار كل شئ، قالت :

« إنه كان صديقاً لكم مثلما كان صديقاً لى!! ».

« إنك لم تجيبى على سؤالى! »

« إن كان هناك من يستطيع مساعدته فهو أنتم ! »

«ولماذا تظنين أننا سوف نفعل ؟! »

«لأنه كان يحارب من أجل الحرية! »

« هل تعتقدين أن هذا سبب كاف؟! »

« هل تحاولون الحصول منى على مقابل؟! ».

كان جوابهاوقحاً بكل المعانى . . . وكانت هى تدرك ذلك تماماً، كما كانت تحاربه بنفس سلاحه، ولقد ساد الصمت لثوان أضافت بعدها وقد بدا الغضب يغزو ملامحها:

« أنا أعلم أن القصة التى رويتها لكم ليست سارة! »

رماها رورك بنظرة تساؤل فأردفت :

« من حقكم الآن أن تقوموا بإبعادى، وأنا أعلم أنكم تستطيعون ترحيلى إلى ألمانيــا الشــرقــيــة كى أحــاكم هناك بتــهــمــة الخــيــانة . . . ولكن. . . . . ».

فجأة اختنق صوتها فتوقفت عن الحديث وقد امتلأت عيناها بالدموع :

« غير أنى أتوسل إليكم أن تمنحونى فرصة ! »

« أية فرصة؟! »

« أن أعمل لحسابكم؟! »

هكذا كانت ارمجارد فى ذروة تألقها ، فلأنها تقدمت إليهم كعميلة مدربة، فليس هناك سوى الوضوح طريقاً للنجاة . . . وبدلا من التخمين أو اللف والدوران، فلقد اختصرت كل الطرق، وتطوعت بأن تكون فى خدمتهم قبل أن يطلبوا منها ذلك !

***

لابد من الاعتراف بأن تلك السيدة كانت داهية تماماً . . .

ذلك أن عرضها هذا كان يشير بوضوح إلى أن انهياراً قدحدث فى داخلها . . . ولقد نهض رورك من مكانه وسار حتى النافذة المطلة على الميدان . . . كان واضحاً، رغم أن رتبته أقل من رتبة سكاربورو، أنه المتحكم فى الأمر . . . لذلك، فلقد ساد الصمت حتى استدار نحوها قائلاً:

« سيدتى . . . إننا نشكر لك مبادرتك بالحضور إلينا! »

« أنا المدينة لكن بالشكر لأنكم استقبلتمونى ! »

« هذا واجبنا على كل حال! »

« لكنه ليس من واجبكم أن تستمعوا إلى مأساة مثل مأساتى ! »
وقف رورك أمامها تماماً، وجاءت كلماته بالغة الوضوح :
« والآن . . . ما الذى تستطيعين أن تمدينا به من المعلومات؟! »
. . .   .
. . .   .

كان هذا السؤال الذى ظلت ارمجارد تسعى لاصطياده منذ التقت بهم بالأمس لأول مرة . . . ولقد ظلت طوال الوقت تتذكر الإجابات التى لقنها إياها ارنست و وليبر ورجاله حتى لا تنسى منها شيئاً . . . لاذت بالصمت طويلاً وهى تحملق فى وجه الرجل الذى بدا جاف الملامح، ثم قالت :

« إنى أستطيع أن أمدكم بأسماء الأساتذه الموجودين فى جامعة هال . . . وبالتحديد، هؤلاء العسكريون الذين لهم تأثير قوى على الطلبه! ».

«أهذا كل ما فى الأمر؟!»

«إنى أعرف أيضاً أسماء أغلب الضباط الحمر فى هال وبرلين الشرقية! ».

« وماذا عن عملائهم فى برلين الغربية؟! ».

هكذا اقتحم رورك لب الموضوع فلاعبته:

«إن العملاء كثيرون. لكن أهميتهم تتفاوت! ».

كانت الآن تساوم بوضوح . . . سألها الرائد سكاربورو:

« هل لك أن توضحى أكثر؟!! »

« أنا أعرف أسماء عدد لا بأس به من العناصر هنا فى برلين الغربية! »

هم سكاربورو بسؤالها مشجعاً، ولكنها أردفت :

« بل إنى أستطيع الاتصال بهم ومعرفة المتعاونين معهم! »
كان ما قالته الآن خطيراً تماماً . . . هتف رورك فى حدة :
« وماذا عن القوات السوفيتية فى ألمانيا الشرقية؟! »
التفتت إليه وهى تصيح :
« سيدى . . . لماذا تنسى دائماً أنى مدربة، ولست فتاة بلهاء؟! »
« هل لك أن تجيبى على سؤالى؟! ».
« إنى أعرف مواقع عدد كبير من فرق الجيش السوفيتى! »
هم رورك بالسؤال فلاحقته :
« كما أنى أستطيع الحصول على معلومات عن شرطة الشعب فى ألمانيا الشرقية! ».
صمتت هنيهة وكان رورك يحملق فيها، فأضافت متسائلة كأنها تتحدى:
« هل تعنيك مثل هذه المعلومات ياسيدى؟! ».
مرة أخرى . . . كان ما تقوله ارمجارد خطيراً، ولقد قرأت على وجوه الرجال الثلاثه، بما فيهم رورك نفسه ، أن لعابهم بدأ يسيل لفرط إحساسهم بأهمية ما كانت تدلى به من معلومات، فأرادت أن تجهز على ترددهم، قالت:
« ثم هناك صناعة النشر فى ألمانيا الشرقية! »
كان واضحاً أنها انتصرت فى هذه الجولة، هم رورك بالسؤال فقاطعته:
« ولست أعتقد أنكم تعرفون الكثير عن هذه الصناعة بالذات! »
« مثل ؟! »
« مثل الأشخاص المرتبطين بها خاصة فى ألمانيا الغربية، ولا تنس عملاءهم السريين الذين تعاملت معهم وجهاً لوجه! ».

هنا . . . حدث مالم تتوقعه ارمجارد شميدت، فلقد ضرب النقيب رورك سطح المائدة بيده وهو يهتف بها :

« هذا الأسلوب الذى كان يجب عليك أن تتعاملى به معنا منذ البداية ياسيدتى! »

لم تصدق ارمجارد أذنيها، لكنها هتفت مبتسمة :

« ولكنى أعلنته منذ لحظة لقائى بكم . . . وكان المنتظر أن تفهموا ماأرمى إليه دون تصريح! ».

كان رورك الآن فى موقف لا يحسد عليه . . . لكن سكاربورو كان سعيداً فغمرت الابتسامة وجهه . . . ونهضت ارمجارد وقد أحست بمزيد من الثقة بالنفس، وتقدمت من رورك قائلة فى ثبات :

« سيدى النقيب . . . عندما جئت إليكم، كنت أعرف خطورة ما أفعل . . . كما أنى أعرف الآن أن عودتى إلى ألمانيا الشرقية تعنى إعدامى . . . ولذلك، فإن قبلتم تعاونى معكم، فإن لى شرطاً جوهرياً أرجو أن تقبلوه! »

« أى شرط هذا بحق الشيطان؟! »

« أن تقوموا على حمايتى من الشيوعيين! »

هم بالحديث فأردفت :

« دون أن يكشف أمرى بطبيعة الحال! ».

ظل رورك فى مكانه جامداً كتمثال، مضت ثوان خطت فيها ارمجارد نحو حقيبة يدها، حتى إذا التقطتها، استدارت نحوه هاتفة :

« والآن . . . إنى فى انتظار كلمة منكم!! ».

أصبح الموقف بين الطرفين واضحاً لا لبس فيه ولا غموض . . .

كان الأمريكيون يريدون معلومات، أكبر قدر من المعلومات . . . وفى المقابل، كان كل ماتظاهرت ارمجارد أنها فى حاجه إليه، هو الحماية لا أكثر ولا أقل . . . وكان هذا من وجهة النظر الموضوعية البحتة، حقها !!

وهكذا جرى الأمر بين النقيب رورك وبين ارمجارد شميدت،

فلقد كان رورك يسعى وراء المزيد مما كانت تخفيه هذه الحسناء التى بدا له جمالها فى ذلك الوقت من اليوم ـ رغم الإجهاد والتعب وزوال سحر المكياج المتقن ـ براقاً إلى حد بعيد .كانت الشمس قد غربت، وقد أخذ الإجهاد من الجميع كل مأخذ . . . وكان الرجال يستطيعون تأجيل الأمرإلى الغد، غير أن الموقف كان قد أصبح مثيراً إلى الحد الذى دفع رورك إلى مواصلة ذلك الصراع الخفى . . . ولقد أحس هذا الشاب أنها بطلبها الحماية منهم، إنما تضعهم فى مأزق قبل أن يتأكدوا من صدق ماقالته . . . ولذلك، فلقد عاجلها بقوله :

« فراو شميدت . . . أعتقد أنك مسئولة عما فعلته فى حياتك من قبل! ».

« أنا لم أحمل أحداً مسئولية تلك الحياة التعيسة ياسيدى ! ».

« ولذلك . . . فإنى أحب أن أنبهك إلى أننا لا نستطيع أن نضمن لك تلك الحماية التى تطلبينها! ».

هتفت فى يأس :

«حقاً ! ».

غمغم رورك مساوماً :

« على أنك لو زودتينا بما نحتاج إليه من معلومات، فلن ننسى لك هذا الجميل! ».

« هل لك أن توضح أكثر ياسيدى؟! ».

«كلما كانت معلوماتك هامة، كلما بذلنا جهداً أكبر فى حمايتك! ».

وهكذا وصلت المساومة بينهما إلى ذروتها . . . وهكذا أيضاً لم يعد هناك ما يمكن أن يقال . . . فلقد قال رورك ما قاله، وهو يحنى رأسه فى تحية مقتضبة، ثم يغادر الغرفة لا يلوى على شئ !!

وجدت ارمجارد نفسها مع الرائد سكاربورو والملازم فريسبى . . . ولم تكن تدرى ماذا عليها أن تصنع بالضبط. . . تقدم سكاربورو من الهاتف ورفع السماعة وراح يجرى حديثاً فى صوت خافت . . . وكانت هى فى انتظار هذه اللحظة الفاصلة، كانت تبدو متوترة، راحت تضرب أخماساً فى أسداس متسائلة بينها وبين نفسها عما هم فاعلون معها . . . ولقد لحظ فيرسبى توترها فتقدم منها وقدم لها سيجارة وفنجاناً من القهوة قبلتهما شاكرة . . . وعندما انتهى سكاربورو من حديثه التليفونى، الذى كان واضحاً أنه أجراه مع رئيس له... التفت نحوها باسماً ووجهه يفيض بالبشر قائلاً:

« أرجو ألا نكون قد أثقلنا عليك بالأسئلة! ».

كانت لهجته رقيقة تحمل علامات ود لا يخفى. وهكذا اطمأن قلبها وتكسرت أهدابها مثلما تفعل الممثلات الأمريكيات عندما يلعبن أدواراً رومانسية . . فأضاف سكاربورو وكان منتفخ الأوداج :

« سوف نكون فى انتظارك غداً فى التاسعة صباحاً ! ».

رمته بنظرة عرفان لم تغب عن عينيه . . . ابتسمت وهى تتمتم :

« أرجو أن أكون عند حسن ظنك دائماً ياسيدى الرائد! ».

رد سكاربورو فى كلمات بالغة الوضوح :

«إننا نعتمد على خبرتك السابقة فى عدم نسيان شئ مهما صغر شأنه! ».

كانت لهجته وكلماته ، تحمل مع الوعود ، نذيراً واضحاً . . . ولقد وصلتها الرسالة فردت :

« ثق أنى سأكون عند حسن ظنك تماماً! ».

قالت هذا وهى تخطو نحو الباب، وكان الملازم فريسبى أسبق إليه منها ، فلقد فتح لها الباب فى أدب . . . بل، وقام بتوصيلها حتى الباب الخارجى!

***

كانت ارمجارد تنزل فى فندق صغير يوحى بقلة ما لديها من مال . . . وهى، عندما عادت إلى فندقها فى تلك الليلة، كانت مجهدة بالفعل، متوترة كما لم تتوتر فى حياتها . . . أوت إلى غرفتها التى ما إن خطت إليها حتى أدركت أنها فتشت تفتيشاً دقيقاً . . .

زفرت فى ضيق ثم ألقت بنفسها فوق الفراش !

قالت ارمجارد فيما بعد، إن هذه الليلة كانت أشد وطأة عليها من الليلة

السابقة ... ذلك أنها كانت مدركة تمام الإدراك، أنها الآن تعبر جسراً بالغ الخطورة، وأن عليها إن أرادت أن تنجح فى مهمتها، أن تكون متيقظة الذهن حاضرة البديهة... ولم يزرها النوم إلا لماماً، ما أن تغلق عينيها حتى تستيقظ وآلاف الأسئلة تدق فى رأسها كالمطارق، عما يمكن أن تواجهه فى الأيام القادمة !!

كانت طوال ساعات الليل تحاول أن تتذكر، وتستذكر كل ما زودها به رجل المخابرات الشرقى أرنست ووليبر من أسماء ... كان لكل اسم من هذه الأسماء قصة، ولا بد لها أن تتذكر كل تفاصيل هذه القصص، كما كان عليها أن تتذكر الملامح الخاصة بشخصية كل اسم، والنقاط الغامضة فيه ... وهى ... عندما غفت قرب الفجر، كانت مدركة تماماً، أن المعركة الآن، ليست بين الأمريكيين وبين ووليبر، ولكنها بالدرجة الأولى، بينهم، وبينها هى شخصياً !

ولأسبوعين متتاليين راحت ارمجارد تتردد على مكاتب مخابرات الجيش الأمريكى فى برلين الغربية ... وفى حقيقة الأمر، فإن هذين الأسبوعين أثبتا أن تلك السيدة البارعة الحسن، خارقة الذكاء، تتمتع فوق كل ميزاتها بذاكرة غير طبيعية .. فلقد كان الحوار بينهم وبينها يحتدم لحظة بعد أخرى، بل ويتسارع، لكنها أبداً لم تخطئ مرة، ولم تتردد إلا فيما ينبغى التردد فيه !!

ولقد طال الأمر لأن كل ما كانت تقوله كان يوضع ـ دون شك ـ تحت مجهر يكشف الحقيقى فيه من المزيف ... وجاءت النتائج كلها كى تؤكد

صدق حديثها، ودقة معلوماتها، وقوة ملاحظتها أيضاً !

غير أن أهم ما جاء في حديث ارمجارد بالنسبة للأمريكين، كان حديثها عن الشيوعيين الموجودين فى ألمانيا الغربية ... كان منهم شيوعيون من اتباع تروتسكى، ومنهم من كان يناصر تيتوضد ستالين ... ومنهم من كان الحزب فى ألمانيا الشرقية يريد التخلص منه بأى ثمن !

وجاءت معلومات ارمجارد على أكبر قدر من الأهمية ... كانت هناك أسماء معروفة لرجال المخابرات الأمريكية، وكانت معلوماتهم عن هذه الأسماء مطابقة تماماً لتلك التى أدلت بها ارمجارد ... ولكنها ـ فوق ذلك ـ زودتهم بعدد آخر من الأسماء لم تكن معروفة لديهم ... وهكذا ، وعندما أجريت التحريات عن هؤلاء الأشخاص، ثبت أن ارمجارد لم تكن تقول سوى الحقيقة !!

ثم ...

ثم كانت هناك تلك المعلومات عن مراكز توزيع الجيش السوفيتى فى ألمانيا الشرقية ... ومعلومات أخرى عن هؤلاء الذين كانوا يتعاملون مع دور النشر فى ألمانيا الشرقية تحت ستار أو آخر ... و... ويبقى بعد كل هذا شئ بالغ الأهمية .

بقى بعد ذلك، شخصية ارمجارد نفسها!

فلقد وصلت المعلومات من ألمانيا الشرقية، عن طريق عملاء كانوا يتعاونون مع الأمريكيين، مطابقة تماماً لكل ما أدلت به ارمجارد عن نفسها ... فإذا أضفنا إلى ذلك، أنها كانت من ذلك النوع من النساء الذى

تصعب مقاومته . . . زيادة على براعتها فى استخدام العطور التى تتناسب مع ما ترتديه من ملابس كل يوم . . مما جعل الرجال الثلاثة، ينتظرون تلك الساعة التاسعة من صباح كل يوم ، كى تهل عليهم ارمجارد شميدت بطلعتها وابتسامتها الساحرة !

. . . .

. . . .

أمدت تلك الأيام ارمجارد بمزيد من الثقة بالنفس، بل إنها وجدت نفسها وقد تعودت على مشوار كل يوم من الفندق إلى المبنى . . . وبالقطع، فلقد كانت مدركة منذ البداية، أن ذهابها يومياً، ولمدة أسبوعين إلى مبنى المخابرات الأمريكية، ليس سوى مأزق يضعها فيه الأمريكيون لإحكام السيطرة عليها ، دون أن ينتبهوا إلى أن هذا بالضبط، ماكانت تريده وتسعى إليه.

حتى إذا كان ذات يوم، قالت لهم على استحياء: إن زيارتها اليومية لمبنى المخابرات قد تدفعها لخطر الانكشاف من بعض الفضوليين، وهو ما لا تريده بأى حال من الأحوال . . . ثم ألمحت فى نفس الوقت ، أنها مضطرة أن تنفق آخر مارك معها كى تغير من هيئتها، بحيث ترتدى مثلما ترتدى الأمريكيات . . . ولابد لهامن بعض البلوزات والجونلات والبنطلونات، كما أنها اضطرت للذهاب إلى الحلاق كى تغير من تسريحة شعرها !!

ولقد كانت ارمجارد صادقة فيما قالت ، فما أن انتهى الأسبوع الثانى، حتى كانت قد تشبهت تماماً بالأمريكيات ، وبدت مثل واحدة من عشرات الموظفات اللواتى كن يعملن فى المبنى !

لم يكن هذا فقط ماتتطلع إليه ارمجارد ، فلقد كانت تعلم بطبيعة الحال، أن كل ما كانت تدلى به من معلومات ، كان محل بحث مع «رئيس» للرجال الثلاثة ... وهى قد تيقنت، منذ رأت سكاربورو يتحدث فى التليفون ذلك الحديث الخافت، أن هذا «الرئيس» يتابع ما كان يدور بينها وبين الرجال يوماً بيوم ... فمن يكون هذا الرجل الغامض ؟! ... وإلى أى نوع ينتمى؟! ... هل هو فصيلة رورك الذى يأبى التجهم أن يغادر ملامحه رغم كل محاولاتها ؟ ... أم أنه من نوع سكاربورو الطيب الذى كان يبدو، رغم ذكاء أسئلته وخطورتها ... كم يريد الاقتناع بكل ما كانت تدعيه ؟!

... ...

... ...

كان هذا « الرئيس» هو الكولونيل بريتشارد ... كان فى السادسة والأربعين من عمره، حازم التصرفات، حسن السمعة، من ذلك النوع الذى يتفانى فى عمله إلى أقصى ما يستطيع، كما كان يتفانى فى حبه لعائلته، وخاصة أحفاده الخمسة !!

وعندما انقضى الأسبوعان، وانتهت التحقيقات والتحريات والمناقشات، فوجئت ارمجارد شميدت أن الكولونيل بريتشارد ، يطلب لقاءها بنفسه !!

***

تلك كانت مرحلة جديدة وخطيرة، بل ربما كانت أخطر مراحل تلك الرحلة التى قامت بها ارمجارد داخل المخابرات الأمريكيه فى برلين الشرقية ...

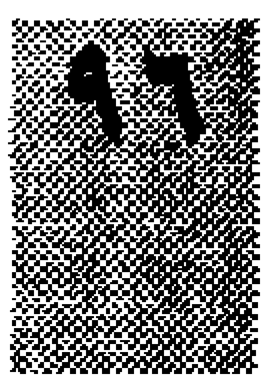
ولقد اكتشفت ارمجارد منذ اللقاء الأول، أن هذا الرجل ذا الوجه الصبوح والبشاشة الطبيعيه، يحمل عقلاً بالغ الحدة، وذكاء من ذلك النوع الذى ترتعد له فرائص الرجال ... ورغم هذا ، فلقد عاملها منذ لقائها الأول، بحنان أبوى جعلها ـ بينها وبين نفسهاـ تشعر بارتباك حقيقى !

الخطير فى الأمر، أنها لم تكن قد تأهلت، لافى الاتحاد السوفيتى، ولا مع أرنست وولبير، ولا كانت هى نفسها مستعدة للقاء مثل هذه الشخصية المركبة، والتى شعرت بوضوح، أنها شخصية يجب الحذر منها!

فى هذا اللقاء الأول مع الكولونيل بريتشارد، أدركت ارمجارد أن عليها أن تعتمد على ذكائها وإحساسها الشخصى تجاه هذا الرجل ... ولذلك فلقد اتبعت أسهل الطرق، واعترفت أمام الرجل مع بعض الدموع التى ذرفتها، أنها أخطأت، وأنها تورطت مع الشيوعيين، بل اعترفت أنها تعتبر نفسها مجرمة فى حق رجل أحبها بإخلاص وكان يعمل على خلاص ألمانيا من براثن الاتحاد السوفيتى ..

ولقد تأثر الكولونيل بحديثها، ولم يحاول أن يخفى تأثره ...

وبذلك استطاعت أن تكسب مع الرجل الجولة الأولى ... ذلك أن بريتشارد طمأنها تماماً إلى أنها تحت الحماية الأمريكية ، وأنها تستطيع أن تعيش فى ألمانيا الغربية كما تشاء ... ولقد التقت به بضعة مرات، وكانت ، وسط الحديث عن العمل ، تشكو من خوفها من الأيام القادمة، وأن ما كان معها من مال بدأ ينفد... مما دفع الكولونيل إلى التفكير فى الاستعانة بها فى بعض أعمال الإدارة !!.



كان هذا مجرد خاطر خطر له لكنه لم يخرجه إلى حيز التنفيذ حتى إذا كان يوم . . . طلبت ارمجارد شميدت موعداً لرؤية الكولونيل !

بادرته بقولها :

« سيدى . . أرجو أن تغفر لى تطفلى، فبعد مزيد من التفكير، لم أجد من ألجأ إليه سواك! ».

كانت ارمجارد فى ذلك الصباح تبدو شاحبة مهمومة .

« أنت تعلم سيدى الكولونيل أنى قررت عدم العودة إلى ألمانيا الشرقية مهما كانت المخاطر ! ».

« وهل طلب منك أحد أن تعودى؟! ».

« إن أقصى ما أتمناه أن ألحق بأمى فى هيلدبرج! ».

« ولماذا لا تفعلين ذلك؟! ».

ترددت قليلاً نكست نظراتها، جاء صوتها متكسراً حزيناً :

« إننى مفلسة تماماً! ».

اعتدل الكولونيل فى جلسته وهم بالحديث، لكنها قالت فى حدة:

«لست أسعى إلى منة من أحد . . . إنى فقط أبحث عن وظيفة أتكسب منها! ».

مرة أخرى هم الرجل بالحديث لكن الدمع كان سباقاً على عينيها، وصوتها المختنق بالبكاء كان أسبق من صوته، وكانت تقول :

« لقد فكرت فى الحصول على وظيفة من تلك الوظائف الروتينية . . . غير أنى اكتشفت أنى سوف أطرد قبل أن تمضى بضعة أسابيع! ».

« تطردى؟! »

« نعم ... لأن كل مواهبى تنحصر فى مجال واحد!! ».

كانت الجملة بالغة الذكاء. كما كانت تتسق مع كل ماأدلت به ارمجارد، ورغم هذا، فلقد كانت المفاجأة مذهلة، عندما سمعت بريتشارد يسألها:

«هل تقبلين أن تكونى سكرتيرتى الخاصة؟!».

***

أبداً لم تسع ارمجارد لهذا، كل ما كانت تصبو إليه وظيفة صغيرة داخل المبنى ... وظيفة تتيح الفرصة لأن تتسلل تدريجياً، وتنتقل منها إلى أخرى، أو ... تكتفى بها وتقوم بأداء مهمتها بشكل أو بآخر... لذلك، فلقد دق قلب ارمجارد فى عنف، وازداد وجهها شحوباً، ثم تضرج بالدماء فازدادت جمالاً ... وراح عقلها يعمل بسرعة ... فهل ينصب لها هذا الكولونيل فخاً يستطيع منه أن يراقبها جيداً حتى يصطادها؟!... هل اكتشف الأمريكيون أمرها وهم ينتهزون الفرصة للإيقاع بها؟!... أم أن الهدف تحقق بضربة حظ لا تتكرر؟!!

كان الكولونيل بريتشارد يرقبها فى اهتمام، وما لبث أن هتف:

« ماذا دهاك بالله عليك؟! ».

لم يكن هناك سوى طريق واحد ... تساقط الدمع من عينيها مدراراً وهى تقول:

« هل من الممكن أن تكون بمثل هذا الكرم؟! ».

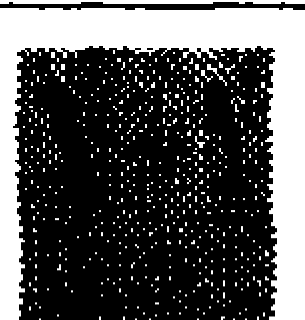
« ليس عليك سوى أن تقولى نعم كى تتسلمى وظيفتك الجديدة! ».
ليس للتراجع أى مجال الآن، فلتلقى بنفسها فى خضم الأمواج إذن :
« سيدى .. ثق أننى لن أنسى لك هذا الصنيع ما حييت!! ».
وهكذا حققت تلك السيدة الداهية، ما لم تحلم به، هى، أو أرنست ووليبر نفسه !!

كانت تلك لحظة باهرة بالنسبة لارمجارد شميدت ... وهى ، عندما أقدمت على ما أقدمت عليه، لم تكن تحلم أن تحصل على مثل هذه الوظيفة التى تضعها فى مكان القلب بالنسبة لهذا المبنى ... كان هذا هو ذروة النجاح بالنسبة لتلك الفتاة التى أرسلها رجل المخابرات الأمريكية، وتمده بكل ما تستطيع أن تحصل عليه من أسرار !

غير أننا لا نستطيع أن نتقبل الأمر بمثل هذه البساطة، فلابد أنه كانت هناك مناقشات، وكانت هناك معارضة، وربما استهجان للفكرة ... غير أن كل التحريات التى أجريت حول ارمجارد شميدت، وكل التحليلات التى تمت، وكل المعلومات التى أدلت بها ، أكدت أنها كانت صادقة تماماً فى ما فاهت به ... ولم يكن من الممكن أن يتركوا سيدة ضحت بكل شئ، وفقدت كل شئ ، فى مهب الريح بلا دخل ولا عمل!!

***

خلال أسابيع قليلة، أصبحت ارمجارد مضرب الأمثال فى دقة العمل والتنظيم ... فلقد منحت بريتشارد كل مهارتها وحذقها، وشهد لها الجميع ، حتى هؤلاء الذين عارضوا التحاقها بتلك الوظيفة ، بالتفانى فى العمل إلى حد الإرهاق ... وجاء يوم أطلق عليها الكولونيل لقب «ذراعى اليمنى» !!

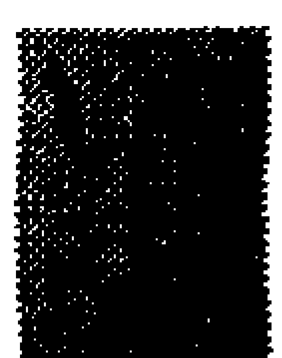


كانت حاذقة، شديدة المهارة فى ترتيب الأوراق والمعلومات والملفات، بحيث كان يكفى أن يطلب منها شيئاً، فى أى فرع من فروع الإدارة، حتى يجده أمامه فى دقائق جد قليلة... وكان طبيعياً، والأمر كذلك، أن تنشأ بين الرجل الذى يعيش بعيداً عن زوجته وأولاده ووطنه، وبين تلك السيدة الباهرة الجمال، المتفانية... نوع من المودة الغامضة... مودة ظلت حرارتها تزداد يوماً بعد يوم... وبطبيعة الحال، كانت ارمجارد تشجع مثل هذا الأمر، بالرغم من أنها كانت حريصة كل الحرص على أن تبقى تلك العلاقة بينها وبين صيدها الثمين، علاقة عمل فقط.. ورغم نظرات الإعجاب التى أصبحت تطل من عينيه بين الحين والحين، إلا أنها - أبداً - لم تسمح بأن يتجاوز الأمر هذه النظرات!

وفى هدوء شديد، وخطوات مدروسة تماماً... كانت ارمجارد تنفذ خطتها.

ما أن حصلت على الوظيفة، حتى تركت الفندق الصغير، واستأجرت شقة متواضعة كتلك الشقق التى تملأ أوربا، والتى يستأجرها أمثالها من الشباب محدودى الدخل.. ورغم صغر المكان، إلا أن ارمجارد حولته - فى حدود دخلها لا أكثر - إلى جنة حقاً.

فى نفس الوقت، راحت ارمجارد تخلع ثوبها الألمانى، كى تنقلب، يوماً بعد يوم، من فتاة ألمانية، إلى فتاة أمريكية قح... ولقد أفادتها تلك الدورة التى تلقتها فى موسكو بطبيعة الحال، كما أفادتها تلك الأفلام الأمريكية التى عرضوها عليها هناك... فإذا هى وبحسابات دقيقة تماماً، تتحول إلى فتاة أمريكية فى كل شئ، كانت ترتدى ما ترتديه الأمريكيات،



وتصفف شعرها مثلهن، وتتصرف كما يتصرفن، وتتحدث بنفس اللكنة التى أصبحت تحيط بها من الصباح وحتى المساء ... واستكمالاً للمظهر، راحت تؤم، بين الحين والحين، واحداً من تلك المقاصف التى يؤمها الجنود والضباط الأمريكيون، كى تحتسى كأساً من البيرة بعد عمل يوم شاق ... وكان طبيعياً أن تلتقى فى هذا المقصف بجندى أو ضابط صغير الرتبة من الذين يعملون معها فى المبنى ..وبالتالى، كان طبيعياً أن تتبادل معهم التحية، أو تتبادل معهم كلمات المجاملة ثم تفر هاربة إلى حيث غرفتها لا تبرحها حتى صباح اليوم التالى . وفى واقع الأمر، ولأنها كانت مدربة، فلقد كانت تدرك أنها قد تكون، بشكل أو بآخر، مراقبة رقابة صارمة ... لذلك، فحتى تلك الكلمات التى كانت تتبادلها مع البعض، كانت مغلفة بحرص فسّر ـ بالضرورة ـ على أنه حرص على أسرار عملها مع الكولونيل ... ولكنها ، فى نفس الوقت كانت تتحين الفرصة، كى تلقى بشباكها على واحد من الذين كانوا يؤمون هذا المقصف بالذات . وكان هذا الشخص هو الجندى جون ديلبرت ... ذلك الذى استقبلها فى أول ليلة تدخل فيها مبنى المخابرات الأمريكية فى برلين الغربية !

كانت المعلومات ـ الآن وبعد بضعة أسابيع ـ متوافرة تحت يدها ... مئات الوثائق والمعلومات عما يمس الوجود الأمريكى فى ألمانيا الغربية، أصبحت تحت يدها ... لكنها لم تبادر بالعمل ، ولم ترسل شيئاً إلى ووليبر ـ هكذا كانت التعليمات !!ـ فى البداية ...كانت هناك خطة، وكانت أيضاً فى انتظار الضوء الأخضر من الناحية الأخرى من السور!!.

كان جندى الاستعلامات الأمريكى جون ديلبرت يجلس فى المقصف ذات

مساء، عندما رفع رأسه كي يجد ارمجارد شميدت تقف قبالته وعلى شفتيها ابتسام رقيقة ... كان المكان مزدحماً يعج بالرجال والفتيات، وكانت الموسيقى صاخبة والأصوات أكثر صخباً، وكانت ارمجارد تستأذنه في مشاركته مائدته!

هب الشاب المبهور واقفاً وهو يهتف مشيراً إلى المقعد :

« من فضلك افعلي ! ».

وعندما جلست شاكرة ، رمته بنظرة امتنان أصابته بالوجوم ... كان ديلبرت الشاب يعرف الآن من هي بالضبط، وأي وظيفة تشغل ... ولم يكن هذا ـ في حقيقة الأمر ـ يعني الكثير إلى جوار جمالها الذي أخذ بتلابيبه منذ الليلة الأولى التي شاهدها فيها وهي تطلب اللقاء مع أحد المسؤولين ... ولقد تبادل معها في تلك الليلة أحاديث كثيرة عن برلين والرجال والفتيات، وتحدث قليلاً عن أمه وأبيه ... وعندما انتهت من كأسها، نهضت باسمة شاكرة ، ثم استأذنت وانصرفت تاركة هذا الشاب في حيرة من أمره.

غير أن المسكين ، أصبح ينتظرها في كل مساء ... وكانت هي تلبي دعوته إلى مائدته شاكرة، كي تحتسي كأسها، وتتبادل معه الحديث، ثم ، ما أن تنتهي من الكأس، حتى تنهض، وتنصرف !

تلك كانت أيام عطرة بالنسبة لجون ديلبرت الذي كان يقضي نهاره كله في انتظار تلك اللحظات التي يلتقي فيها مع ارمجارد ... وهي قد تأتي، وقد تختفي لأيام دون أن يجرؤ على سؤالها عن السبب في اختفائها أو حضورها، حتى إذا تشجع ذات مساء، وكانت قد اختفت لبضع ليال،

وسألها قالت وأهدابها تتكسر أمام نظراته :

« إن الناس لن يصدقوا، إذا ماالتقينا كل ليلة، أننا مجرد صديقين! ».

هم ديلبرت بالحديث محتجاً، لكنها أوقفته قائلة :

« على كل . . . هناك مسكنى الصغير، من الممكن أن أدعوك إليه بين الحين والحين! ».

وكأن صاعقة أصابت هذا الشاب المسكين، راح يحملق فيها غير مصدق، وعندما همت بالانصراف عرض عليها أن يقوم بتوصيلها، لكنها اعتذرت ببعض المهام التى يجب أن تقوم بها قبل العودة إلى البيت، ولم تنس، قبل انصرافها، أن تعطيه عنوانها، وأن تضرب له موعداً فى اليوم التالى !

. . . .

. . . .

كان من الطبيعى أن يتجاذبا أطراف الحديث أثناء زيارته لها . . وكان من الطبيعى أيضاً، وهو يعرف مكانتها فى الإدارة، أن يجيب ، وهى تقدم له الكأس تلو الكأس، على بعض الأسئلة البريئة التى كانت تطرحها عليه عن زوار المبنى، بل إنه فى بعض الأحيان ـ فى زياراته التالية ـ كان يتطوع بأن يثرثر معها، وأن يسرد عليها الكثير مما كان يشاهده فى موقعه، والكثير مما كان يسمعه من زملائه عمن كانوا يأتون إلى المبنى فى زيارة أو للإدلاء بمعلومات . . . وبالنسبة إليه، لم يكن هناك حرج فى أن يدلى بمثل هذه المعلومات أمامها . . . أليست هى سكرتيرة المدير وكاتمة أسراره ويده اليمنى؟!

وهكذا أصبحت ارمجارد شميدت، على معرفة وثيقة، وربما يومية، بكل من كانوا يأتون إلى هذا المبنى، وأسباب حضورهم ... بل، وأسماء الضباط الذين كانوا يستقبلونهم!!

فعلت ارمجارد هذا مع الجندى جون ديلبرت، لكنها أبداً لم تسمح للعلاقة بينهما بأن تتعدى هذه الحدود، بل استطاعت بمهارتها، أن تجعله ممتناً لمجرد أن يكون صديقاً لها تدعوه بين الحين والحين لاحتساء كأس من الشراب معها فى شقتها الصغيرة ... ذلك أن ديلبرت كان يرى بعينى رأسه، الكثير من الضابط وهم يتوددون إلى ارمجارد فتصدهم فى رفق، وقد تقبل دعوة على تناول كأس مع أحدهم ... حتى إذا ما توطدت العلاقة بينها وبين أحد الضباط، وارتفعت إلى مستوى الصداقة ... لم يحدث أبدا، أن دعت أحدهم إلى شقتها الصغيرة وحده، إما أن يكون بصحبة خطيبته أو صديقته ... وإما أن يصطحب معه صديقاً آخر!

ولقد كان هذا كله يصل بطبيعة الحال إلى رئيسها الكولونيل بريتشارد، فيزداد إعجابه بها، بل يزداد تدلها فى حبها ... وفى الوقت الذى كان يتقلب فيه على نار ظل يقاوم طويلاً كى لا تظهر، كانت هى تستمع إلى أصدقائها من الضابط وهم يناقشون أمور غاية الأهمية، بل والسرية، أمامها!

كان تحفظها فى استقبالهم دافع غريب لأن يفك عقدة الألسنة، خاصة فى أيام الجمع والسبت، عندما كانت السهرة تمتد أحياناً إلى منتصف الليل، ويرسلون فى طلب بعض السندوتشات، وتتوالى الكؤوس ..

وعندما جاءها الضوء الأخضر من برلين الشرقية . . . كان أرنست ووليبر هو أول الدهشين لكمية المعلومات التى راحت تنهال عليه من هذه الفتاة العجيبة . . . كانت الأسرار تنهال بين يديها بلا تحفظ . . . لكنها، على الوجه الآخر، كات شديدة الحرص على ألا تناقش، وألا تدخل فى جدل، وألا تبدى رأياً . . . بل إنها كانت أكثر حرصاً على ألا تتفوه بكلمة، مجرد كلمة ، عن عملها فى مكتب الكولونيل بريتشارد . . . مما جعل ثقة الرجال فيها تزداد يوماً بعد يوم . . . ومما جعل بريتشارد يقع صريع حب عاصف كاد يفقده اتزانه!

أصبحت نظراته الآن أكثر إفصاحاً عما يعتلج فى جوانبه!

وكانت ارمجارد، بالتالى، تتصنع الخجل فتفر هاربة من أمامه إذا ما شعرت أن النظرة قد تتحول إلى كلمة أو تصرف . . . حتى إذا كان صباح، بدا فيه الكولونيل وكأنه لم يذق للنوم طعماً طوال الليل، كانت عيناه منتفختين، وكانت نظراته صارخة . . . وكانت هذه هى اللحظة التى انتظرتها ارمجارد طويلاً، فقررت أن تضرب ضربتها فى ذلك اليوم!

عندما حان وقت الغداء، دعاها لتناول السندوتشات مع القهوة السوداء فى مكتبه . . . وكان هذا أمراً طبيعياً تماماً، بل لقد حدث أن تناولت معه طعام الغداء فى المكتب من قبل . . . وفيما هما يتناولان الطعام، ويثرثران حول أمور الدنيا، قادت ارمجارد الحديث إلى الماضى، حيث الذكريات كانت أليمة، وحيث يسمح لقطرات الدمع تتساقط من عينيها، فتعاف مع الذكرى الطعام، وتنخرط فى البكاء . . . وكان لابد للرجل المدله أن يواسيها، وأن

يعدها بأن تكون ذكرياتها عما هو قادم من أيام جميلة ... نهض إليها وقد رق قلبه، ربت على كتفيها فى حنان، ثم ... ومع استمرار هطول الدمع، ضمها إلى صدره ... وما كاد يفعل ، حتى انفلتت من بين ذراعيه هاتفة كعذراء :

« بريتشارد ... لا يجب أن ننسى أننا فى المكتب! ».

وبهت الرجل الذى كان حبه قد طغى على كل شئ فى حياته ... كانت جملتها غريبة، كانت جملة موحية بأكثر مما كان ينتظر...راح ينظر إليها وهو ينتفض فهمست:

« أخشى أن يدخل علينا أحد! ».

وفى المساء ... كانت ارمجارد تستقبله وهى ترتدى فستاناً كان ذروة فى الأناقة ... وكانت هناك، عدا زجاجة الشامبانيا المثلجة، مجموعة من الأطباق ... والموسيقى تنساب من الراديو الصغير فتحول المكان إلى سحر بالغ الخصوصية ... وكان هذا أكثر مما يحتمل كهل فى عمر الكولونيل بريتشارد ... اقترب منها ، وما كاد يضمها إلى صدره، حتى انكمشت بين ذراعيه كأنما هى تحتمى بهما من خطر يداهمها... وهمست وشفتاه تبحثان عن شفتيها:

« عزيزى ... لا تنسى أنك زوج وأب !!! ».

... ...

... ...

وراحت الأيام تنقضى والكولونيل الذى اشتهر طيلة مدة خدمته بسمعته



الطيبة، يتلوى فوق جمر من شوق كان يسلمه إلى شوق أكثر التهاباً ، فلقد أذاقته ارمجارد من فنون الحب ما لم يخطر له على بال . . . حتى إذا كانت ليلة ، لم يستطع فيها المقاومة أكثر ، فهتف ملتاعاً :

« ارمجارد . . . لابد أن أعترف لك أني أحبك ! ».

نظرت إليه طويلاً، وامتلأت عيناها بالدمع، ثم سألت :

« وماذا بعد. . . ماذا بعد؟! ».

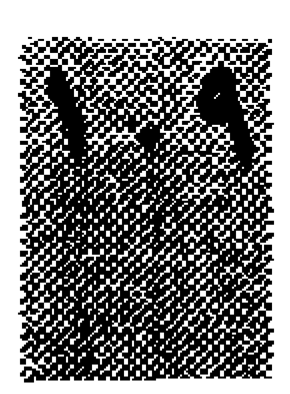
وكانت هذه الجملة، هي الحبل السرى الذى ربط هذا الرجل بها حتى كان ماكان !

***

عند هذا الحد، قد يروق لنا أن نتوقف قليلاً كي نتساءل :

هل من المنطقى أن عقولاً بمثل هذا الذكاء، وعلى قدر لابد ممتاز من التدريب والحنكة والخبرة معاً، عقول تستطيع التغلب، فى مباراة ذكاء مع مستوى رفيع حقاً . . . أن تقع فى خطأ بسيط، تكشف به عن نفسها ؟!

إن ما خطط له رجل المخابرات الألمانى أرنست و وليبر، يعتبر دون أدنى شك، نوعاً رفيعاً من الأداء فى مثل هذا الحقل الملغوم . . . وحتى اختياره لارمجارد لم يكن موفقاً فقط، بل كان يدل على عقلية فذة تستطيع أن تكتشف فى الإنسان ـ مهما بدا عادياً وواحداً من آلاف مثله ـ جوهر التفوق فيه، ثم تعده الإعداد اللازم، كى تدفعه إلى المهمة فى ثقة !



نقـول هذا ، لأن نهـاية هذا العـمليـة جـاءت مناقـضـة تماماً لكل هذه المقدمات...

وعلى كل ... فالذى لا شك فيه، أن الكولونيل بريتشارد، عاش فى تلك الأيام أسعد أيام عمره على الإطلاق، كان حبه يزداد رغم أن ارمجارد ـ أبداً ـ لم تمنع عنه شيئاً ... وفى تلك الليالى الساحرة ، التى كانت تصنع منها حلماً أسطورياً للرجل الذى كان يقترب من الخمسين ، كانت تناقش معه ، وبحرية شديدة كل الأسرار مهما عظمت ... وكان هو ، من جانبه ، قد طرح عنه كل تحفظ ... وهكذا، استطاعت ارمجارد أن تحصل على معلومات لا تقدر بثمن!!

وهكـذا ازداد تدفق المعلومـات على أرنسـت ووليـبـر فى برليـن الشـرقية ... تـدفقاً جعل هؤلاء الـذين كانو يعملون لحساب المخابرات الأمريـكية فى الشطر الشرقى من برلين، يشعرون معه بالفزع ... ذلك أن المعـلومات لم تكـن وفـيرة فقط، بل كـانت أيضاً صحيحة، وبالغـة الدقة!!

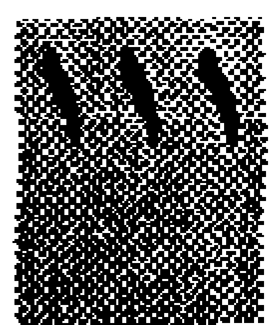
وكان لابد وأن يصل الأمر إلى واشنطن!

وكان لابد وأن تتحرك العاصمة أمام هذه الظاهرة المفزعة!

وكان لابد، قبل الحركة، أن يختبروا هذا الأمر الذى كان ـ فى البداية ـ شكاً صارخاً ... فـإذا بهم يدسـون على الإدارة التى يرأسـهـا السـيـد بريتشـارد، معلومات من نوع معين ... وقطع الشك باليقين، فلقد وصلت هذه المعلومات، بسرعة عجيبة، إلى برلين الشرقية !

كانت هذه هى القرينة التى أكدت، أن إدارة المخابرات الأمريكية فى برلين الغربية، فيها جاسوس يعمل لصالح السوفيت !

وهكذا طار شاب فى الأربعين من عمره ، قصير شعر الرأس ... صخرى الملامح، أطلق عليه اسم « الرائد بيكر » من واشنطن، سراً، إلى برلين الغربية ... وكانت المهمة التى أسندت إليه، هى الكشف عن هذا الجاسوس الذى يعمل فى قلب جهاز الأمن !



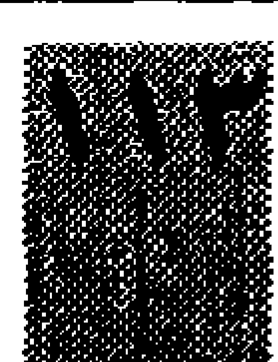
سبق وصول الميجور بيكر إلى برلين الغربية، عدد من الإجراءات البالغة السرية التى أراد من ورائها، وقبل أن يصل إلى هناك، أن يجد إجابات على عدد لا بأس به من الأسئلة التى شغلت باله .. فكان أول من وصل إلى برلين الغربية، سرا ، وعلى فترات متباعدة، وتحت ستّر متعددة، عدد من الرجال كانت المهمة الموكولة إليهم، هى وضع عدد من موظفى الإدارة ، وقع عليهم الاختيار بعد دراسات دامت وقتاً غير قصير، تحت رقابة صارمة...

وكان طبيعياً أن تكون ... ارمجارد شميدت، واحدة من هؤلاء الموظفين !!

وكانت النتائج التى توصل إليها هؤلاء الرجال، كلها سلبية !!

وبالنسبة لارمجارد على وجه التحديد ... لم يكن هناك ما يشير من قريب أو من بعيد إلى ما يثير أى نوع من أنواع الشكوك ... كانت تصرفاتها فى الإدارة، وتحركاتها اليومية، ولقاءاتها ... وأحاديثها وعلاقاتها مع الآخرين تبدو كلها عادية تماماً ولا غبار عليها!

ولابد لنا هنا أن نشير إلى شئ هام وملفت للنظر حقاً ... ذلك أن السرية التى أحيطت بها مهمة رجال السيد بيكر، قد لا تخفى، ولا يجب أن تخفى، عمن يمتلكون أنوفاً مدربة على تشمم رائحة الخطر ... بمعنى، أن



ارمجارد شميدت لابد قد أحست أن ثمة شيئاً غير عادى يسبح فى الجو من حولها . . . وكان الغريب فى الأمر، والمثير للدهشة فى نفس الوقت، أنها بالرغم من هذا الإحساس الذى اعترفت به فيما بعد، لم تتوقف عن العمل حتى ينجلى لها الأمر وتنقشع سحابات الشك كما كان يجب أن تفعل، بل استمرت فى أداء مهمتها، وإمداد ارنست ووليبر بسيل من المعلومات لم يتوقف .

ومهما كان الأمر . . . فعندما وصل الميجور بيكر إلى برلين الغربية، كانت كل الحقائق التى وضعت بين يديه والتى توصل إليها الرجال، تؤكد أمرين على طرفى نقيض:

الأمر الأول : فهو أن واحداً من الذين يعملون فى هذا المبنى، لم يكن أبداً موضع شك ، خاصة بعد تلك التحريات التى أجريت ، والتى أثبتت أن الجميع لاغبار على تصرفاتهم أو حتى حياتهم الشخصية !

غير أن ثمة شيئاً لفت نظر الميجور بيكر فتوقف عنده .

كانت كل الآراء، وكل التقارير. . . . تشير إلى أن تلك الفتاة ـ ارمجارد شميدت ـ القادمة من ألمانيا الشرقية، ذات كفاءة عالية لم يختلف عليها اثنان . . . وأنها ـ على الوجه الآخر ـ كانت ذات سمعة طيبة بين الجميع . . . فوق أن كل تصرفاتها وتحركاتها التى وضعت ـ ربما بشكل خاص ـ تحت رقابة بالغة الصرامة طيلة أسابيع سبقت وصوله إلى برلين الغربية، كانت طبيعية تماماً وليس فيها ما يثير أى نوع من أنواع الشكوك! ولما كان الإنسان هو الإنسان، فإن ذلك الكمال الذى اتسمت به تصرفات ارمجارد، لم يكن مما يبعث على الاطمئنان بقدر ما يبعث على الشك !

فمن غير المعقول ـ مثلاً ـ ألا تختلف ارمجارد مع غيرها من السكرتيرات والموظفين، ومنهم بالقطع من كان يطمع فى أن يشغل وظيفتها الهامة ... ومن غير الطبيعى، أن يجمع الكل ـ وبلا استثناء ـ على حسن خلقها وتصرفاتها وخفة دمها ورقة مشاعرها ... كما أنه ـ على وجه آخر ـ من غير المعقول أن تكون كفاءتها فى العمل نبراساً للجميع خاصة وأنها لم تقل ـ فيما قالت عن حياتها فى ألمانيا الشرقية ـ أنها شغلت وظيفة سكرتيرة، فإذا ما أضفنا إلى كل هذا ، ذلك التفانى والإخلاص فى العمل، فلابد أن يكون وراء كل هذا شئ، كان من الضرورى الكشف عنه !!

باختصار ...

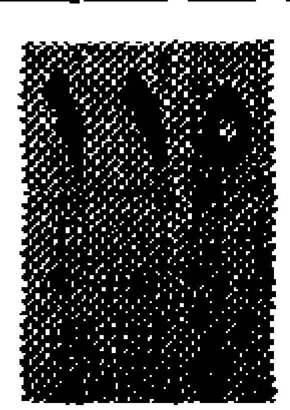
أحس الميجور بيكر بعدم الارتياح لارمجارد ... فلقد تحركت فى صدره تلك البوصلة الغامضة التى يتمتع بها هذا النوع من الرجال المدربين، أو ما يمكن أن نطلق عليه مجازاً، الحاسة السادسة !

وفيما بعد، فلقد قال الميجور بيكر، أنه أراد أن يلقى القبض على هذه الفتاة التى فتنت الجميع، لكنه لم يكن يستطيع أن يفعل ذلك دون دليل مادى دامغ.

ولقد تردد الرجل طويلاً، ثم، وعندما عثر على حل وسط، اتخذ قراره ... وكان القرار غريباً وحاسماً فى نفس الوقت ، كان القرار بفصل ارمجارد شميدت من وظيفتها!!

***

ليس هناك معلومات دقيقة عن كيفية صدور هذا القرار ... هل كشف بيكر عن وجوده وأصدر أوامره، أم أن الأمر جاء من واشنطن ... وإن كان



المنطق يقول، أنه حتى ولو كان قد وصل إلى برلين الغربية سراً، فلابد وأن الكولونيل بريتشارد قد أحيط علماً بوصوله تحسباً لأى احتمال . . . وعلى كل ، فلقد صدر الأمر وأصيب الجميع بالذهول، وكان أشد الجميع ذهولاً، هو الكولونيل بريتشارد نفسه وسكرتيرته الحسناء، ارمجارد شميدت !

***

وعندما جلست ارمجارد شميدت على المقعد المقابل لمكتب بريتشارد، كان الرجل يبدور فاقد الحيلة، أما هى ، فلقدكانت تذرف الدمع حقاً، قالت بصوت مختنق :

« لقد قيل لى أنكم لم تعودوا فى حاجة إلى !! »

فى ثورة غضب جامح، ضرب بريتشارد المكتب بقبضة يده مزمجراً :

« ليس هناك من يستطيع اتخاذ مثل هذا القرار سواى! »

« على كل . . . فأنا أستطيع أن أدرك الأسباب وأتفهمها!! »

«هؤلاء الأغبياء! »

« لا تزعج نفسك يا حبيبى، فأنا لاأريد لك أن تدخل فى صراع من أجلى!! ».

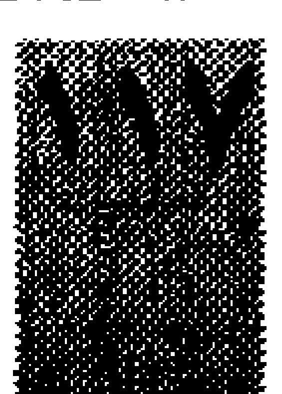
قفز الكولونيل العاشق ناهضا وقد زادته لهجتها ثورة فوق ثورته . . . كان معنى ما حدث ـ بالنسبة إليه ـ أن تقديره للأمور قد أصبح موضع شك فى واشنطن . . . ولقد دفعته دموع ارمجارد إلى القول :

« اذهبى الآن إلى بيتك واتركى لى الأمر؟! »

فى هلع هتفت محذرة :

« بريتشارد . . . ماذا أنت فاعل ؟! »

« لا تكثرى من الأسئلة . . . فقط، دعينى أتصرف ! ».
« لا تنسى ياحبيبى أن لك سمعتك! »
« لا تخشى شيئاً! »
نهضت من مكانها وهى تكفكف دمعها :
«إن لك أسرة ومكانة لابد من الحفاظ عليها! »
ازداد بريتشارد حبا، هتف ممتناً:
« كم أنت رقيقة ياحبيبى! »
« سوف أقتل نفسى لو أن شيئاً أصابك بسببى! »
« لا تقولى هذا . . . دعينى أتصرف ولا تقلقى! »
« ثم . . . ثم إنى أستطيع العثور على عمل آخر فى برلين! ».
كانت تدفعه ، بطريق غير مباشر، إلى الهدف الذى راحت تسعى إليه . . . ذلك ، أنها أدركت أن قرار الفصل قد يعنى طردها من برلين الغربية، وكانت هى تريد أن تبقى فيها، وبالطبع، كانت تسعى إلى مساندة عشيقها المتيم فى تحقيق هذا الهدف . . . ولقد قالت ما قالت وتناولت معطفها استعداداً للانصراف، ثم اقتربت منه حتى لفحت أنفاسها صدره وهى تهمس:
« ثق أن علاقتى بك لن تتغير مهما حدث . . . ولا تنس أنى أحبك ! »
قالت ارمجارد هذا . . . ثم انصرفت تاركة الرجل يغلى بالغضب، ويذوب حنيناً إليها فى نفس الوقت !
ما إن غادرت ارمجارد مكتب بريتشارد ، حتى هدأت عاصفة الغضب فى صدره الرجل ، ولأنه فى البداية والنهاية رجل مدرب . . . ولأنه كان،



رغم حبه الجامح وعواطفه الملتهبة، يملك عقلاً قادراً على التحليل، وعلى وزن الأمور بعيداً عن تأجج العواطف ... فلم يكن أمامه سوى معالجة الأمور بحكمة وروية !

بدا له الأمر باعثاً على الحيرة ... كما كان أيضاً بمثابة إهانة وجهت إليه !

وإذا كان بيكر قد فعل ما فعل، فلابد أن شكوكه قد وصلت إلى درجة أصبح وجود ارمجارد بعدها فى مكتبه أمراً غير مرغوب فيه ...

فراح يتساءل والحيرة تمزقه، هل خانته ارمجارد وهو الذى غرق فى حبها إلى الحد الذى نسى فيه كل شئ فى حياته ؟!

ثم ماذا ... ماذا سيكون وضعه إذا ما ثبت أن بعض هذه الشكوك كان حقيقياً؟!

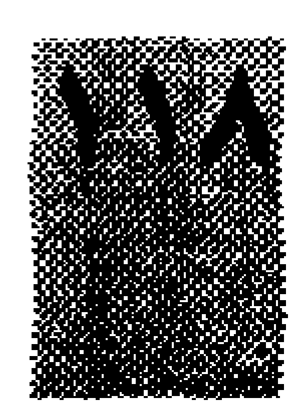
كيف سيكون موقفه ... وماذا يمكن أن يفعل ؟!

ولم يكن ممكناً أن يعثر بريتشارد على إجابة حاسمة، قبل أن يلتقى ببيكر وجهاً لوجه !!

***

كان اللقاء بين الرجلين هادئاً تماماً شأن كل اللقاءات بين هذا النوع من الرجال الذين يتعاملون بلغة بالغة الخصوصية، هى لغة العقل والتحليل ؟!

قال بيكر أنه يعترف أن كل من فى الإدارة يشهدون بكفاءة المس شميدت، وأنه، من ناحية أخرى، ينظر إلى وجهة نظر بريتشارد بعين الاعتبار ... لذلك، فلسوف يعدل عن قراره بالفصل، على أن تنقل ارمجارد من المبنى إلى أحد مكاتب السلاح الجوى حيث الأسرار المتاحة قليلة تماماً.



ولقد أرضى هذا الحل الكولونيل بريتشارد، ذلك أنه ـ أولاً ـ سوف يحفظ له أمامها ماء وجهه، ثم أنها ستظل على مقربة منه !

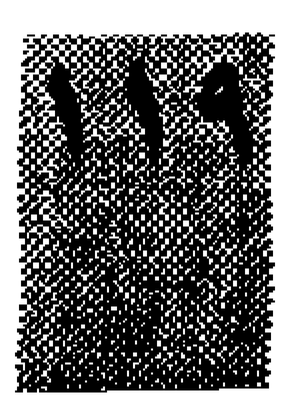
لكن الرجل لم يكن يعرف أن ثمة عاصفة من التنقلات سوف تهب على الإدارة كلها من الغرب، عبر المحيط من واشنطن، حيث أخذت توصيات الميجور بيكر بعين الاعتبار ... فنقل عدد لا بأس به من الموظفين إلى أماكن أخرى، ثم وصلت العاصفة إلى ذروتها، عندما صدر قرار بنقل الكولونيل بريتشارد نفسه إلى الولايات المتحدة، حيث وضع هناك ،تحت رقابة بالغة الصرامة !!

***

لم يكن هناك الكثير من المعلومات تستطيع ارمجارد في وظيفتها الجديدة أن تحصل عليه، اللهم إلا بعض الأماكن للرادار، وأنواع الطائرات الجديدة التي وصلت إلى برلين الغربية، ... ولقد وجد الرفيق ارنست و وليبر، أن بقاء ارمجارد في برلين أمر لم تعد له جدواه ... فبعد أسابيع طالت بعض الشيء، وصلت إلى الآنسة شميدت رسالة على كارت بوستال، وكانت تقول : « .. كنت أتمنى أن تكوني معنا هنا!!».

ورغم أن الرسالة كانت تبدو عادية، وكانت صادرة من «ريزبادن»، مما لا يشكل أي نوع من أنواع الريبة، إلا أن الميجور بيكر، وقد قرأ الكارت قبل أن يصل إلى ارمجارد، راح يفكر في مغزى الجملة ذات المظهر البرئ ... ومرة أخرى ، أحس بشيء غامض يتحرك في صدره ... فقرر ـ على الفور ـ أن يتولى أمر ارمجارد بنفسه، قبل أن تفلت من يده !

وهنا ... يحق لنا أن نتوقف كي نتساءل :



إذا كان السيد ووليبر واضع مثل هذه الخطة التى تبدو مثالية، والتى حققت بالفعل الغرض منها ... وإذا كان هذا الرجل من هؤلاء الذين يحق لنا أن نطلق عليهم لقب « الصفوة» فى هذا الحقل ... فكيف ، وقد حدث ما حدث لعمليته، وهوشئ شبيه بالعاصفة، ترك ارمجارد ـ أولاً ـ تمده بمعلومات لا قيمة لها عن سلاح الجو، ثم ـ ثانياً ـ كيف سمح لنفسه ـ حتى ولو كان الأمر قد تم شفهياً ـ أن يستدعيها بمثل هذه السرعة بدلاً من تركها فى معقل من معاقل الجيش الأمريكى مهما كان هذا الموقع بلا قيمة ... حتى تحين فرصة مناسبة لعودتها دون أن تثير أن نوع من أنوع الشكوك ؟!

هنا تبدو الأمور ، وكأن تلك العقليات التى تتسم بالعبقرية، يصيبها أحياناً نوع من الجمود أو الغباء ، أو ربما الغرور أو الاستهانة، يحتاج أى منها إلى تحليل؟!

***

بعد بضعة أيام اكتشف بيكر أن ارمجارد تحيا حياة طبيعية تماماً، تذهب إلى عملها فى الصباح ، ثم تغادره إلى شقتها الصغيرة كى تتناول هناك طعام العشاء، كى تتوجه بعد ذلك إلى المقصف القريب كى تحتسى قليلاً من الشراب شأنها شأن كل فتاة عاملة فى مثل عمرها ... لكنها ، غالباً، ماكانت تغادر المقصف متأبطة ذراع جندى أو ضابط !!

لم يكن الأمر ـ الآن ـ فى حاجة إلى المزيد من التفكير ، وإنما كان فى حاجة إلى حسم، وإلى قطع الشك باليقين !

وكان هذا الحسم فى حاجة إلى خطة، خطة تحتاج إلى شخص ذى كفاءة من

نوع خاص . . . ولم يكن الأمر صعباً، فلقد كان يعرف بالضبط، من هو الشخص الذى يصلح للمهمة!

فى صباح أحد الأيام، كان يجلس إلى شاب ألمانى، طويل القامة دقيق الملامح، ذى شعر كستنائى تتهدل خصلة منه فوق جبهته على الدوام . . . وكان يشبه إلى حد بعيد نجوم السينما، كما كان اسمه : « الفريد مينز».

كان الفريد مينز هذا يعمل لحساب المخابرات الأمريكية. وهو من ذلك النوع الذى يستهوى السيدات والفتيات على حد سواء، فهو، فوق أنه مغازل ممتاز، مهتم أشد ما يكون الاهتمام، بمفاتنه العضلية، وقدرته على المغازلة!!

وعلى كل . . . فلم يستغرق اللقاء بين بيكر ومينز أكثر من ساعة، شرح فيها بيكر للشاب الألمانى، مهمته بدقة شديدة، حتى إذا انتهى، قال بعدها:

« الآن . . . هل عرفت بالضبط ماذا عليك أن تفعل ؟!».

قال الفريد مينز بثقة متزايدة:

« لا عليك ياسيدى . . . سوف أقوم بالمهمة !»

وأطلق الرجلان بعدها ضحكة عالية . . . و . . . وافترقا!

***

مرة أخرى ودون أن نستبق الأحداث.

إذا كان ووليبر قد أصيب فجأة بذلك العمى الذهنى الذى جعله يتصرف أخيراً بمثل تلك الركاكة التى تصرف بها . . . فكيف يمكن لامرأة مجربة، ومدربة، وذات خبرة أكيدة بالرجال، أن تقع فى شرك تافه كهذا الذى نصبه لها بيكر. ؟!

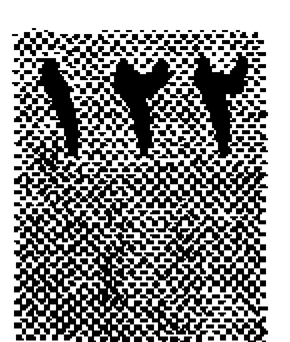
ذلك أنها عندما دلفت إلى مشربها المفضل هذا فى ليلة من ليالى برلين الباردة، كان هناك وجه جديد يجلس وحيداً وفى ركن منزو. . . وعندما التقت نظراتهما فى لحظة، فوجئت به يبتسم لها، ولأنها تعرف هذا النوع من الشباب، فلقد ردت على ابتسامته بابتسامة خفيفة ثم أشاحت عنه . . . فلقد أدركت ـ بداية ـ أنه ألمانى، وأنه من ذلك النوع الذى يباهى بجسده ويبيع لياليه مقابل وجبه عشاء وكأس . . . ثم ـ وعلى وجه آخر ـ فهو ليس هدفاً من أهدافها، ولاداعى لقتل الوقت وإضاعة ليلة دون جدوى . . غير أنها فوجئت بعد لحظات بالشاب وقد وقف أمامها فى احترام، وهو يسألها إن كانت تقبل دعوته على مشروب ، فهو وحيد، وهى الأخرى ـ وقد دخلت إلى المقصف منذ نصف ساعة ـ وحيدة !

كانت الحانة فى تلك الليلة شبه خالية من الضباط والجنود الأمريكيين على غير العادة . . . وكان الملل فى وظيفتها الجديدة يسيطر عليها، كما كانت الأحداث ـ دون شك ـ قد أثرت فيها . . . ولم يكن هناك ما يمنع من أن تتسلى مع نموذج بدا لها تافهاً من الرجال، ولو لليلة واحدة !

منذ البداية، كان واضحاً لها أن الشاب رقيق الحال . . . وأنه احتسى عدداً لابأس به من الكؤوس . . . ولقد قال لها متلعثم اللسان أنه يعترف لها من البداية أنه فقير ولا يملك سوى مرتبه الضئيل . . . وكان لابد وأن تسأله عن عمله . . . فما كان منه إلا أن مط شفتيه فى ازدراء وهو يقول : أنه يعمل كمترجم لبعض الوثائق السرية فى إحدى الإدارات الأمريكية !!

« وثائق سرية؟! »

هكذا هتفت ارمجارد ، وهكذا كشفت تلك السيدة عن حقيقتها وهى



التى أوقعت أعتى الرجال فى شباكها، وسقطت فى شرك تقليدى لا يحتاج إلى عبقرية لكشفه ... وهى عندما هتفت بهاتين الكلمتين ، أصيب الفتى بالذعر، وراح يتلفت حوله وكأن صاعقة أصابته ... سألته فى دهشة:

« ما الذى دهاك يحق الشيطان؟ »

مال نحوها هامساً:

« هل جننت ... كيف تهتفين هكذا بصوت عال! »

لمعت عينا ارمجارد ، فعاد الفتى إلى الهمس :

« إنى أعمل فى مكاتب المخابرات المركزية الأمريكية ! »

شهقت وهى تبادله الهمس :

« السى. آى إيه؟! »

«أرجو أن يظل الأمرسراً بيننا! »

«بكل تأكيد! »

و... وكان طبيعياً أن تنصرف ارمجارد، وقد ابتلعت هذا الطعم الساذج، من ذلك المقصف وهى تتأبط ذراع الفتى الغريب مينز!

كما كان طبيعياً أيضاً أن يثرثر الفريد، وهما فى الطريق إلى بيتها عن طبيعة عمله البالغ الخطورة ... فهو يترجم كل مايرد إلى المخابرات الأمريكية من ألمانيا الشرقية ... ثم راح يشكو لها أنه بالرغم من خطورة عمله، وكمية الأسرار التى يطلع عليها، فإنهم يأبون إلا أن يعطوه مرتباً يكاد بالكاد يكفيه!

فى الليلة التالية، قصت عليه ارمجارد نفس قصتها مع لاين

وفرانكورفر التى قصتها قبل شهور طويلة على ثلاثة من رجال المخابرت الأمريكية فصدقوها !

بدا لها الصيد ثمينا، وكانت الآن تستطيع أن ترد على برقية ووليبر التى يطلب فيها أن تعود إلى برلين الشرقية . . . وفى حماس راحت تغزل شباكها حول الفتى الذى أتقن معها دور التافه . . . راحت تحدثه عن ألمانيا، وعما عانته فى القطاع الشرقى، وعن الإذلال الذى يلقاه الشعب هناك ، والأمل فى أن يعمل الألمان، هنا وهناك، على وحدة وطنهم . .

وكان طبيعياً أيضاً أن يحدثها الفريد عن بعض الأسرار التى كانت تقع تحت يده . . . وأصبحا يلتقيان كل ليلة . . . ولم يمض وقت طويل ، حتى أعلنت ارمجارد ذات ليلة أنها تحبه.

واعترف لها الفريد مينز بأن هو الآخر وقع فى حبها . . . بل إنه زاد فى الأمر فسألها:

«لم لا نتزوج؟!»

***

مرة أخرى . . . يحق لنا هنا أن نتوقف قليلاً كى نتأمل هذا الموقف المأساوى بكل ما تحمله الكلمة من معنى !

من ناحية، كانت الأنباء قد جاءت إلى الميجور بيكر، ومنذ أن انتقلت ارمجارد من الإدارة، أن سيل المعلومات الذى كان يتدفق على برلين الشرقية قد توقف . . . فأصبح الآن ، موقناً أشد ما يكون اليقين، أن الجاسوس الذى يبحث عنه، هو تلك الفتاة ارمجارد شميدت ! . . . لكنه لم يكن يستطيع إلقاء القبض عليها، وتقديمها إلى المحاكمة، حتى يحاسب

كل من كان له يد فى الأمر . . . إلا بعد أن يضبطها متلبسة!

وهكذا ، راح يدفع عملية الفريد مينز، وهو ألمانى، إلى السير بخطى حثيثة فى الخطة التى رسمها، والتى كانت تثبت نجاحها يوماً بعد يوم!

كما كانت ارمجارد شميدت، ألمانيه هى الأخرى، تندفع إلى الإيقاع بابن وطنها، الذى يعمل لحساب الآخرين، كى تحصل منه على أكبر قدر من المعلومات، لصالح آخرين أيضاً!

كان كل منهما يعمل ضد الآخر لحساب دولة ليست دولته . . . وكان كل منهما يبذل قصارى جهده للإيقاع بصاحبه لحساب دولتين تحتلان وطنهما . . . ولما كانت ارمجارد قد حدثته عن حبها لفرانكوفر، فلقد اعترفت له الآن، أنها وإن كانت قد وقعت فى حبه منذ اللحظة التى وقعت عيناها فيها عليه، فإنها الآن لم تعد تحب فرانكوفر الذى كانت تعمل من أجل إطلاق سراحه . . . غير أنها ـ وهذه مسألة أخلاقية بحتة لابد له أن يفهمها كألمانى عريق ـ تشعر نحوه بالتزام أخلاقى، وفى الحد الأدنى، هى تريد أن تعرف، إن كان لايزال على قيد الحياة، أم أنهم أعدموه.

قالت ارمجارد فى تلك الليلة :

« لو أنى أزحت هذا العبء من فوق كتفى ، فلسوف أكون أسعد زوجة فى العالم! »

أبدى الفريد مينز دهشته وهو يقول :

« ولكنى لا أعرف ما الذى يمكننى أن أفعله من أجل صديقك هذا ! »

صمتت ارمجارد قليلاً ، ثم قالت فى تردد من يخشى شيئاً :

« لقد تلقيت منذ بضعة أيام، عرضاً من الشرق ! »

أعتدل الفتى فى جلسته مبديا اهتمامه البالغ :

« ولماذا تخاطرين بحياتك ؟! »

اقتربت منه وهى تقول بصوت مرتجف :

« إنهم على استعداد لأن يفرجوا عن فرانكوفر، وفى نفس الوقت على استعداد لأن يدفعو لنا ما يكفينا لحياة طيبة فى فرنسا أو فى سويسرا! ».

« وماذا يطلبون فى مقابل ذلك ؟! »

« لا شئ أكثر من قائمة أسماء الضباط الجدد فى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ! ».

هب ألفريد مينز واقفا وهو يهتف فى احتجاج مشوب بالذعر :

« ارمجارد ... هل تعرفين خطورة هذا الذى تتحدثين عنه؟! ».

هتفت وهى تقفز من مكانها وقد اشتد انفعالها :

« ألم تسأم من عملك الروتينى ... ألا تشعر بالإهانة والأمريكيون يلقون إلينا بالفتات ؟! »

«نعم ... ولكن ... »

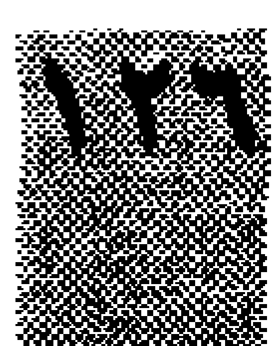
قاطعته:

« ولكننا نستطيع أن نضرب هؤلاء بأولئك، وأن نحصل على قدر كبير من المال! »

« ارمجارد ؟ »

كان الآن يتظاهر بالضعف أمام منطقها ، فعادت تجهز عليه :

« لو أننا أمددناهم بقائمة بأسماء عملائهم فى ألمانيا الشرقية، لأصبحنا فى عداد الأثرياء ! »



« لا ... لا ... لا أستطيع ! »

« بل تستطيع »

« إن هذا قد يؤدى بك إلى السجن! ».

« ومن الذى سوف يبقى هنا بعد أن نحصل على المال! »

« ارمجارد ... إنك تلعبين بالنار! ».

« فى سبيل حبى لك، وفى سبيل أن أصبح زوجتك، وأن أعيش معك فى يسر، أنا على استعداد أن أخوض فى الجحيم نفسه ! ».

... ...

... ...

مرت أيام والشاب الألمانى - بتوجيه من الثعلب بيكر - يقاوم العرض، ويبدى التردد، ويرفض ... وهى - من ناحيتها - لم تكن تلح، وإنما كانت تدعوه إلى الجنة ليلة بعد أخرى، وتغذيه بالأحلام، وتصف ذلك البيت الصغير الذى سوف يضمهما على سفح أحد جبال سويسرا وسط الغابات، بعيداً عن الصراع بين الشرق والغرب. وكلاهما عدو للوطن .. كانت تظن أنها تفتت مقاومته. وكان يتظاهر بالاقتناع تدريجياً .. حتى إذا كانت ليلة من ليالى الشتاء القارسة، جاءها الفريد وهو يحمل ورقة مطوية فى عناية ... قدم لها الورقة وهو يقول:

« ارمجارد ... هذه الورقه فيها كل ما تطلبين من معلومات ! »

فتحت ارمجارد الورقة ، وكانت قائمتين من الأسماء ... فأصابها الذهول!!

كانت القائمة الأولى تضم عدداً من الأسماء على أنهم ضباط المخابرات

المركزية الأمريكية في برلين الشرقية .. أما القائمة الثانية، فكانت تضم عدداً من الأسماء، بعضها كانت تعرفه ارمجارد، على أنهم عملاء الامريكيين في ألمانيا الشرقية!

تعلقت ارمجارد بعنق الفتى ومنحته قبلة حارة ... وكان هو يتظاهر بالتعب والخوف والقلق، قال وهو يتناول الكأس التي قدمتها له، أن أعصابه منهكة. ثم أقسم لها ألا يقوم بمثل هذه المغامرة مرة أخرى ... ولكي تستريح، فلقد سمحت له بالانصراف مبكراً في تلك الليلة!

***

ولم تكد الساعة أن تكتمل حتى غادرت ارمجارد شميدت بيتها تحت جنح الظلام، بنظرة مدربة تماماً، مسحت المكان بعينها ثم انطلقت بعدها وقد اطمأنت أن أحداً لا يتبعها، وكانت تبحث عن سيارة أجرة ... لم تكن ارمجارد، رغم حرصها البالغ، تعلم أنها كانت متبوعة في تلك الليلة، وأن مراقبيها كانوا اثنين فقط، هما الميجور بيكر بنفسه، ومعه أحد معاونيه!

ما أن عثرت على سيارة أجرة، حتى استقلتها، وعبرت بها السيارة نفقاً إلى أحد أطراف المدينة ... ثم غادرت السيارة إلى سيارة أخرى وركبتها بعد أن اطمأنت مرة أخرى - !!! - إنها غير متبوعة ... ومن سيارة إلى أخرى، ومن حي إلى حي،حتى وصلت ارمجارد إلى محطة الخط الحديدي العلوي الذي يربط برلين الغربية بالشرقية ... وقبل أن تستقل القطار، ابتاعت إحدى صحف المساء وتظاهرت بقراءتها حتى تخفي وجهها..

في نفس القطار، كان الميجور بيكر يجلس إلى جوار معاونه، وقد أرخى كل منهما طرف قبعته فوق جبهته، حتى يخفي معالم وجهه ...

ولكن ، وقبل أن يصل القطار إلى المحطة الأخيرة، نهض الرجلان فى هدوء كى يجلس كل منهما على جانب من جانبى ارمجارد . . . لم يكن باقيا سوى دقائق قليلة كى يعبر القطار بعدها الحدود بين شطرى المدينة المحتلة . . . عندما قال بيكر فى هدوء شديد :

« أنت مقبوض عليك! »

***

ضبطت الورقة التى أمدها بها الفريد مينز فى حقيبة يدها.

وحوكمت ارمجارد شميدت، تلك الجاسوسة التى حققت خطوة هائلة فى هذا العالم، أمام المحكمة الأمريكية العليا فى برلين الغربية. وطالب المدعى العام، استناداً إلى أدلة دامغة بسجنها ثلاثة أعوام!

غير أن القاضى حكم عليها بالسجن خمسة أعوام!!

أما فى الولايات المتحدة الأمريكية، فلقد قدم الكولونيل بريتشارد إلى المحاكمة . . . وكانت مأساة هذا الرجل، صاحب المركز المرموق، والسجل العسكرى الحافل أنه برئ من تهمة التجسس، لكنه اتهم بالإهمال والتورط فى مصاحبة جاسوسة!

وكان الحكم الذى صدر عليه ، هو الفصل من الخدمة، وسقوط حقه فى المعاش !

***

والآن . . . وبعد كل هذه السنوات، ثم . . . بعد أن توحدت ألمانيا ، وقضت ارمجارد مدة العقوبة ترى أين تعيش ، وكيف تعيش ؟!

مجرد ـ سؤال ! . . .



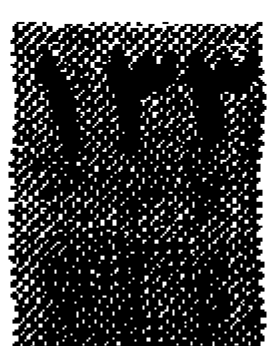
القطة

القطة

١

عندما قرأت قصة هذا السيدة لأول مرة أحسست بالاشمئزاز، رفضت كل ما آلت إليه... غير أنى لم أستطع أن أبعدها عن مدار تفكيرى لأيام، ليس لأنها تحولت من النقيض إلى النقيض، من البطولة إلى الخيانة ولكن لأن التركيب النفسى للإنسان فى مثل ظروفها مع قليل من التفكير والإمعان، يدفع المرء، عند نقطة ضعف بعينها، إلى الإتيان بما لم يكن يحلم به ... وربما كان هذا الضعف بالتحديد، هو الذى دفع رئيس الجمهورية الفرنسية إلى تخفيف الحكم على ميشلينى كاريه ... من الإعدام، إلى السجن مدى الحياة!

... كانت ميشلينى كاريه زوجة لضابط صغير فى جيش الاحتلال الفرنسى فى الجزائر إبان عام ١٩٣٩، وكانت الوحدة التى يعمل بها زوجها تعمل فى إحدى قرى جنوب الجزائر حيث لا حياة اجتماعيه ولا صخب ولا ملاهى ... كانت رقيقة الحجم حمراء الشعر تتدفق بالحيوية ... ورغم مرتب زوجها المحدود، إلا أنها كانت بارعة فى انتقاء ملابسها الرخيصة على أحدث خطوط الموضه فى ذلك الوقت مما أثار عقد الكثيرات من الزوجات فى تلك القرية النائية وسط الصحراء الجزائرية الجافة والبالغة القسوة.



ولبعض الوقت، فإن ميشليني عملت كمدرسة كي تنمي دخلها مما جعلها هي وزوجها يعيشان دون كدر ملحوظ غير أن جيرانها لم يذكروا أبدا أنها كانت سعيدة في حياتها بل حتى الذين سعوا إلى معرفه كل شئ عن حياتها عندما قدمت إلى المحاكمة في باريس بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية لم يذكروا، بل ربما لم يجدوا ما يذكرونه عن زوجها الضابط ... كان الباقون من الجيران يذكرونها، نعم، لكن قلة منهم تحدثوا عن الملازم كاريه الذى كان هائماً بها، مغيبا في حبها!

ولقد جاءتها الفرصه لمغادرة الجزائر والعودة إلى باريس، عندما أعلنت الحرب العالمية الثانية في سبتمبر من عام ١٩٣٩ .. وإذا كانت السلطات الفرنسية قد أعلنت عن حاجتها لممرضات، فإن زوجها كان قد استدعى هو الآخر للخدمة العسكرية في الميدان ... وهكذا غادر الملازم كاريه مع زوجته ميشليني، تلك القرية النائية ولكل منهما وجهته. هي إلى باريس بعد أن تطوعت للخدمة كممرضة وهو إلى ميدان القتال حيث لا يعلم ولا يدرى .. وكان لقاؤهما الأخير في مدينه الجزائر وكان هذا الأسبق في الرحيل، وما هي إلا أسابيع قليلة، حتى جاءها نبأ استشهاده في ساحة القتال، وهكذا اصبحت ميشليني حرة، وهكذا أيضاً أصبحت وحيدة.

دأبت ميشليني منذ ذلك التاريخ على تدوين مذكراتها في جمل صغير موحية ... ثم، وفيما بعد، وعندما أصبحت رهينة المعتقل في بريطانيا تمكنت على كتابة اعترافاتها بالتفصيل، مما حول هذه الاعترافات في نظر البعض إلى وثيقة إنسانيه بالغة التعبير والروعة.

كتبت عن تلك الأيام التي عاشتها في مدينة الجزائر تقول : الجزائر

داكنة، فرضت الحرب عليها الإظلام، كنت أترك الفندق لأتجول في شوارع المدينة . . . ذات ليلة، كنت أجلس في إحدى الحدائق وكان الظلام دامساً، عندما اقترب مني ضابط صغير السن من فرقه المظلات . . . كنت وحيدة، ولقد ظن أني فتاة عربية. . . فجلس إلى جواري وراح يبث لي لواعج فرحته بالعودة إلى باريس

. . . .

. . . .

ولابد أن إحساس ميشليني بالحرية، وربما إحساسها بالوحدة، هو الذي فجر في رأسها تلك الفكرة الشيطانية حيال هذا الضابط الشاب، فراحت تحدثه بالفرنسية بلهجة عربية مما أكد ظنه أنها بالفعل فتاة عربية غير أنه عندما توغل في الحديث معها، قررت أن تلقنه درساً وربما قررت أن تتفرج عليه فطلبت منه أن يدعوها إلى احتساء مشروب في مقصف قريب . . . وما إن دلف إلى المقصف وسقطت الأضواء على وجهها ،حتى اضطرب الفتى أشد الاضطراب، وتقول ميشليني في اعترافتها: أدرك على الفور إلى من كان يوجه كل تلك الكلمات الجميلة في الحديقة، فأحس باضطراب مخيف، مما دعاني إلى تخفيف الأمر عنه، بأن دعوته إلى العشاء في ذلك المقصف!

. . . .

. . . .

بعد أيام من ذلك اللقاء، أبحرت ميشليني كاريه على ظهر باخرة كانت تقل قوات المظلات التي ينتمي إليها ذلك الشاب من الجزائر عائدة إلى أرض الوطن . . . وكان الشاب الصغير يلازمها طوال الرحلة إلا أنهما

افترقا فى مرسيليا حيث كان لابد لها من السفر شمالاً إلى باريس بينما كان عليه أن يذهب إلى حيث لايدرى هو الآخر ... وكانت هذه هى المرة الأخيرة التى تراه فيها!!

وعندما وصلت إلى باريس، كادت تطير من الفرح... ها هى أخيراً فى العاصمة التى طالما حلمت بالعودة إليها ... نزلت فى فندق متوسط، وراحت الأيام تجوب شوارع المدينة، وتملاء عينهابمبانيها التاريخية، وتقف طويلاً أمام السينما تشهد مياهه الجاريه ... أعطت لنفسها الفرصة كى تجلس على مقاهى باريس الشهيرة، وتجوب المونمارتر والشانزليزيه مثل جائع وجد نفسه أمام مائدة عامرة بأطايب الطعام وكتبت ميشلينى كاريه فى مذاكرتها تقول:

... ... إننى سعيدة، أنا فى الجنة . ولسوف أؤدى ما على من واجب، لكيلا تنتصر جحافل الشر على قوى الخير!!..

وعندما تقدمت متطوعة للعمل كممرضة، أرسلت إلى إحدى المستشفيات كى يتم تدريبها على عجل، فلقد كانت الحرب تتقدم يوما بعد آخر، وأفواج الجرس تتتالى من الجبهة ... وكانت مشيلينى عند حسن الظن به، فما هى إلا أيام حتى أصبحت مذهلة، ومن الممكن الاعتماد عليها ... غير أنها ما إن بدأت العمل، حتى صدمت صدمة مروعة، لقد انهارت فرنسا أمام جحافل النازى، وأصبحت باريس ... محتلة!!

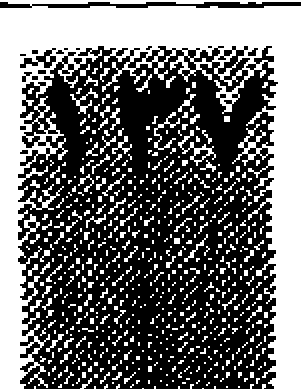
وأصبحت الفوضى هى عنوان كل شئ، فيما بين يوم وليلة هرع سكان باريس هاربين أمام قوات الغزو التى اشتهرت بقسوتها، وتصف مشيلينى فى مذكراتها منظر المهاجرين والهاربين وزحام محطات السكك الحديدية

والمقاهي والشوارع وصفاً بالغ الدقة، كانت تشعر ربما لأول مرة في حياتها بالقهر يمتلكها، تركت لجحافل الناس تجرفها معها أينما ذهبت، وبدت نفسها تنتقل من مكان إلى مكان وحتى مدينة إلى أخرى وكلما سنحت بها الفرصة أن تقدم المعونه في أحد مراكز التمريض هنا أو هناك. كانت تبذل قصارى جهدها لإسعاف الجرحى والسهر على راحتهم ... لكن الزحف لم يكن يتوقف أبدا، كان الزحف، بطبيعة الحال نحو الجنوب ...

وعندما استقر بها الأمر في مدينة تولوز في الجنوب الفرنسي. كانت فرنسا قد استسلمت، وكان المارشيل بتيان، قد أصبح رئيساً لما تبقى منها لكن مشيليني لم تستسلم، ولم تهدأ ... بل قررت الاستمرار في واجبها. في تولوز، أقامت تلك السيدة الدقيقة الحجم مركزاً لاستقبال الحرس الذين كانو يفدون من الشمال فيما بين الحياة والموت، واقترحت على الضباط الفرنسيين إقامة معسكرات لاستقبال القوات الفرنسية المندحرة. أو تلك التي انفصلت عن وحدتها الأصلية ...

في تلك الأيام شهد كل من التقى أو عرف أوتعرف على ميشليني، أنها كانت تصل الليل بالنهار عملاً وجهداً وبذلاً ... كانت وحيدة بلا مأوى سوى فراش هنا أومقعد هناك في معسكرات الجرحي والمصابين والتعساء ... لكنها، في خضم هذا الذى كانت فيه، التقت بهذا الرجل الذى غير حياتها وقادها من حيث لا تدرى إلى حيث هذا العالم الرهيب ... عالم الجاسوسية!! ...

كان الوقت ليلاً عندما وفد إلى وحدة التمريض مجموعة من الجرحى والمشردين ... ومما لا شك فيه أن ميشليني كانت أسبق من غيرها من



الممرضات إلى العمل، وهي عندما التقت فى لحظة بذلك الشاب البولندى الزائغ العينين، أحست من أول وهله، أن ثمة شيئاً غامضاً يربطها بهذا الضابط الشريد...

كان الكابتن رومان أجيرينا سويسكى هو ضابط الاتصال بين الجيش البولندى والجيش الفرنسى ولقد حارب ضد الألمان، ثم أسر، ولكنه استطاع الفرار من الأسر، وظل يتنقل من مدينة إلى أخرى متخفياً، حتى إذا وصل إلى تولوز كان تعساً غاية التعاسة، وكانت معدتة خاوية فمنذ أيام لم يذق طعماً لشئ سوى ذلك الفتات الذى كان يصادفه فى الطريق، كان رث الثياب أشعث الشعر زائغ العينين فاقد الحيلة يائساً حتى النخاع لكن ميشلينى آلت على نفسها أن تعيده إلى الحياة من جديد، وبما تبقى لديها من مال اشترت له ملابس جديدة ومرضته وأطعمته ... حتى إذا استرد صحته، كان قد استرد معها ثقته بنفسه!

كان من الواضح تماما، أن ميشلينى كاريه قد وقعت فى الحب من أول نظرة... ولما كان رومان جيرينا سويسكى وحيداً، فلقد وجد حبها صدى فى قلبه، حتى إذا كان ذات مساء جلسا فيه وحيدين يتناجيان، سألته ميشلينى:

ألا نستطيع أن نصنع شيئاً بدلاً من هذا الركود ؟!

نظر إليها رومان بجانب عينه وكات الدهشة تجتاح كل ملامحه، التفتت نحوه متسائلة:

«لماذا تنظر إلى هكذا ؟!»

«لأنك كنت تفكرين فيما أفكر فيه بالضبط!»

قفزت جالسة قبالته وهى تهتف:

«خبرنى بما يدور فى رأسك!»

«ألا تخبرينى بما يدور فى رأسك أنت ؟!»

تعودا فى مثل تلك اللحظة أن يمزجا اللعب بالعمل، فلقد صاحت ميشلينى:

«إنك ضابط وتفهم فى مثل هذه المسائل!»

راح «رومان جيرينا سويسكى» يشرح لها أفكاره، فعندما كان ضابطا بهيئة أركان الحرب، ولما كان قد عمل كضابط اتصال بين جيشين، فإنه يعرف بعض قواعد الجاسوسية!

هتفت ميشلينى:

«جاسوسية ؟!»

كانت الكلمة دون شك هائلة وكبيرة، ولقد كانت هى على استعداد لأن تفعل أى شئ، فجاءت كلمتها سؤالاً مفعماً بالإثارة التى انتابتها ... وهل هناك أشد إثارة من أن تعمل بالجاسوسية ضد هؤلاء الذين احتلوا بلادك ؟!

ولقد كانت فكرة رومان بسيطه كل البساطة، وهى إنشاء شبكة.. للتجسس ضد الألمان، وتكوين حركة للمقاومة عليها أن تتصل بحركات المقاومة الأخرى، كما تمدها بالمعلومات عن الجيش الفرنسى .. ثم، إذا ما واتتهم الفرصة، أمدوا الإنجليز بما يحتاجون إليه من معلومات!

فى تلك الليلة، تعاهدا على العمل معاً .. وفى تلك الليلة أيضا اتخذ كل منهما لنفسه اسماً جديداً.

كانت ميشليني تجد صعوبة في نطق اسم «جيرينا سويسكي»، ولذلك فلقد تعودت أن تناديه باسم «أرموند» . . . كما كان هو، منذ وقع في حبها، قد أطلق عليها اسم «قطتي »، وهكذا أصبح اسمها منذ الآن هو «القطة»!

***

هكذا خطا رومان، الذي سوف نطلق عليه من الآن اسم «ارموند» الخطوة الأولى في تكوين هذه الشبكة، وهو اتخاذ كل منهما اسماً «كودياً» يتعاملان به مع أفراد الشبكة! ولكن. . . كيف العثور على هؤلاء ؟!

لم يكن هناك أنسب من ضباط الجيش الفرنسي وجنوده الذين استطاعوا الفرار والتخفي من قوات الغازي . . ولقد كان بعضهم يعيش في الجنوب، لكن البعض الآخر كان يعيش في الشمال. . . ولم يكن من الممكن، بل ربما كان انتحاراً، أن يحاول «ارموند» السفر إلى باريس أو الظهور في شوارعها . . . ولذلك، فلقد نشطت ميشليني في محاولات للاتصال ببعض هؤلاء الضباط وعرض الأمر عليهم!

كانت فرنسا لا تزال في حالة من الفوضى ملأت الشوارع بالهائمين على وجوههم، ولم تكن المهمة سهلة، بل كانت تستلزم من ميشليني حذراً شديداً ويقظة عين لاتنام. . . وإذا كانت أوامر ارموند وتوجيهاته دائماً أمام عينيها، إلا أنها كانت لا تزال طرية العود لا تعرف من أمر، «المهمة» الكثير . . . ورغم الصعوبات التي واجهتها، فإنها كانت دائماً ما تعود إليه بفوز جديد، وعضو جديد وافق على الانضمام إليها.

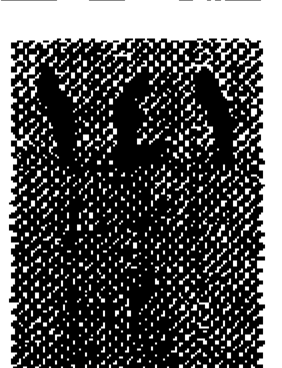
وسرعان ما كونا جماعة عرفت في المقاومة الفرنسية، باسم «انتراليه»،

وعرف تاريخ المقاومة الفرنسية المليء بالشجاعة والتضحية والقصص المثيرة، أن حركة «الإنتراليه» بالتحديد، كانت واحدة من أنشط حركات المقاومة الفرنسية، إن لم تكن أنشطهم جميعا . . . ولقد توجت مشيلينى جهودها، بأن ضمت إلى الحركة، واحداً من الضباط الفرنسيين الذين أصبحوا فيما بعد، رموزاً لحركة المقاومة ضد الاحتلال النازى، هو الكولونيل «مارسيل أركاد» ولم يكن «اركاد» ضابطا عادياً، بل كان ضابطا محنكا يعرف الكثير عن الحرب . . . وكان بالقطع يختلف عن الآخرين . . . ولذلك، ففى أول اجتماع له مع أرموند ومشيلينى، بدأ فى وضع الخطوات الأولى التى يرى أن عليهم القيام بها!

أصبح أركاد بين يوم وليلة، مثلاً أعلى تحبه مشيلينى . . كان صاحب صلات عديدة بالحلفاء، سواء من كان منهم فى أسبانيا أو البرتغال . . وكان مع علاقة مباشرة أيضا بالبريطانيين. كان السؤال المطروح فى الاجتماع الأول هو:

هل سيبقى الجيش الألمانى مرابطا عند الحدود الفرنسية الاسبانية، أم أن هتلر قد توصل إلى اتفاق مع الجنرال فرانكو بالزحف خلال الأراضى الأسبانية، لاحتلال جبل طارق ؟!

ما أن طرح الكولونيل أركاد أفكاره، عليها حتى ران الصمت على الجميع . . . إن معنى هذا أنهم فى حاجة إلى جاسوس مدرب، جاسوس يستطيع السفر إلى الحدود الأسبانية دون أن يلفت الأنظار، وأن يبقى هناك يرقب مايجرى فى حذر وحرص، وأن يرسل رسائله إليها بوسائل خاصة تحتاج إلى تدريب . . . وهكذا، راحوا جميعا يستعرضون الأسماء التى انضمت إليهم اسما اسما، كانوا يناقشون طبيعة صاحبه وقدراته وخبراته،



تحول الثلاثه إلى جهاز صغير للمخابرات ... وكانت المفاجأة الغريبة، أن أحداً من كل الذين انضموا إلى حركة «انتراليه» لا يصلح للمهمة.. إن شخصية كل واحد من أعضاء الجماعة، كانت تحمل نقاط ضعف كفيلة بأن تجعل انكشاف أمره ميسوراً !

عاد الصمت يخيم على الجميع عندما غمغم أركاد:

«لكلننا نسينا اسما يصلح للمهمة تماماً!»

هتفت ميشليني:

«من هو! »

«أنت يا ميشليني كاريه!»

لم تكن المفاجأة محتملة بكل المعاني ... كان على «القطة» أن تغادر تولوز إلى بوردو، وأن تنتقل بعدها إلى «بايوف » ثم تزور مدينة بياترز، فالحدود الأسبانية الفرنسية تمتد بطول مئات الأميال.. ولا أحد يدرى، إن كان ثمة اتفاق قد عقد بين هتلر وفرانكو، من أى مكان سوف يبدأ الجيش الألمانى زحفه نحو الجنوب .. نحو قلعة كان الحلفاء يتمسكون بها فى استماتة لموقعها المتحكم فى بوابه البحر المتوسط، وهى جبل طارق!! عاد الصمت كى يخيم على الجميع، وكان ارموند قلقا، هكذا اعترف فيما بعد، لكن القطة سألت الكولونيل اركاد:

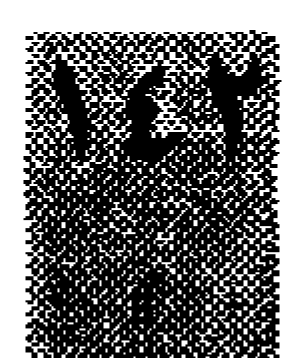
«ألايحتاج الأمر لبعض التدريب!»

«سوف ألقنك كل ما أعرفه!»

وقال ارموند:

«ولسوف أمدك بكل ما أعلم! »

وهكذا أصبحت ميشليني كاريه، منذ تلك الليلة، جاسوسة!

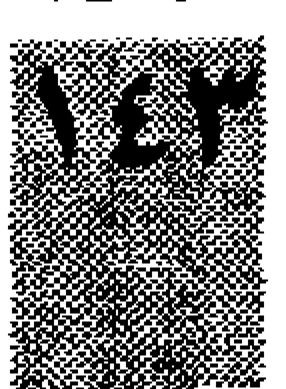




من العسير على من كان مثلنا أن يتخيل أويتصور، تلك الأحاسيس المتناقضة التى تنتاب الجاسوس فى بدء حياته. . . ولابد أن تلك الإثارة الرهيبة التى يشعر بها هؤلاء الأفراد، من الكثافة بحيث يصعب عليهم وصف ما يشعرون به . . . حتى ميشلينى، التى لم تكن حتى ذلك الوقت محترفة، وإنما هى فرد من أفراد المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازى تقوم بما تستطيع القيام به من مجهود مهما كان . . . وهى وإن كانت قد وقعت صريعه هذه الأحاسيس عندما غادرت تولوز وودعت أرموند فى طريقها إلى الغرب حيث الحدود الأسبانية، إلا أنها لم تتوقف طويلا أمام ما كانت تشعر به، فلقد كتبت تصف حماسها وهى مندفعة بكل طاقتها، مسلحة بكل قدراتها مضاف إليها ما تعلمته من أركاد وأرموند كى تحقق مهمتها المقدسة!

عندما وصلت إلى بورو شاهدت الوحدات الجوية وهى تتجمع هناك، بقيت فيها أياما رصدت كل ما استطاعت رصده من تحركات القوات الألمانية، وأرسلت به إلى أرموند كى تنتقل بعدها إلى بايون، ومن بايون وصلت إلى بياترز حيث شاهدت مجموعة من الدبابات بدت وكأنها تستعد للزحف نحو الجنوب!

ولم يكن ممكنا أن تغادر بياترز فمكثت فيها . . .



أدركت القطة أن مـجـرد وجـود الدبابات الألمانيـة لا يعنى شـيـئـاً، وأن السؤال الذى يجب عليـهـا البـحث عن إجـابة له هو: ما الذى تنويه القـيـادة الألمانيـة، هل سيتم الزحف أم لا ؟! ... وإن كان هناك زحف، فـأى الطرق سوف تسلك ؟!.... و.... و.....

ولم يكن ممكنا أن تعرف الإجابة من مجرد المشاهدة، فقررت ذات يوم أن تخوض التجربة وليحدث ما يحدث!!

ذات صـبـاح وكـانت تجلس فى مـقـهى اسـمـه «مـقـهى باريس» فى أحـد ميـادين بيـاترز... قـالت ميشلينى فى اعترافتـهـا، إنهـا فى ذلك اليوم لم تكن تعرف بالضبط ما الذى يجب عليها أن تفعله، كل ما كانت تعرفه، هو أنها لا تستطيع أن تخيب ظن أرموند وأركـاد .. وعندما دخل طيـار ألمانى إلى المقهى وراح يتلفت حوله بحثـا عن مكان يجلس فـيـه، حانت الفرصة، فرمته بنظرة عابرة لكنها كانت كافيه تماماً لأداء الغرض، فسرعان ما تقدم الطيار منها فى أدب، ضم كعبيه وأحنى رأسه فى احترام وهو يقول:

«هل تسمح لى الآنسة أن أشاركها مائدتها ؟!»

شـملتـه بنظرة طويلة كـمن تعـاين إنسـانـاً، ثم مـا لبـثت أن رسـمت على شفتيها ابتسامة وهى تقول:

«ولم لا ؟!»

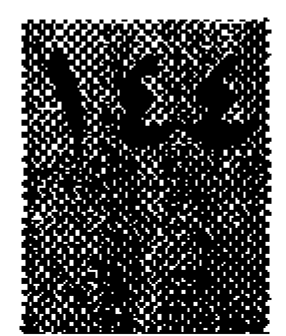
جلس الضابط إلى جوارها سعيداً وهو يبحث عن مفتاح للحديث:

«إننى غريب كما ترين ولا أعرف شيئاً عن هذه المدينة !»

«وما الذى تريد معرفته ؟!»

أوقعه سؤالها فى الحرج فتمتم:

«أى شئ، بعض المعلومات!»



«ألا تقدم لى نفسك ؟!»

مرة أخرى يقع الضابط الشاب فى الحرج، اعتدل فى جلسته، وما إن فتح فمه للحديث حتى بادرته:

«إنك ترتدى ملابس الطيران، مع ذلك فأنت لست طياراً !»

«فى الحقيقة لا!»

«وليست رتبتك بالصغيرة حتى ترتدى شارات غامضة!»

«نعم، أنا كولونيل فى سلاح الطيران حقاً ولكنى مختص بما تطلقون عليه فى بلادكم التموين . . . فجميع الإمدادات المطلوبة للسلاح الجوى هنا، أنا المسئول عنها!»

وكان الصيد بالنسبة لميشلينى، فوق كل خيال!!

***

كتبت ميشلينى فى اعترافتها بعد ذلك تقول:

«......... كان كل همى أن أغرقه فى الشراب حتى يبوح بما لديه من أسرار، ولم يكن مناسبا أن أتركه يشرب وحده وإلا توقف وفقدت وسيلتى إلى ما يجهل من أسرار. . . تصنعت المرح فرحنا ننتقل من مقهى إلى آخر وكان يبدو فى ذروة سعادته وكأنه يريدأن ينفق آخر فرنك يمتلكه قبل أن يغادرنى عائدا إلى وحدته! »

كانت المشكلة التى واجهت القطة فى ذلك اليوم المشهود، هى ضرورة الحفاظ على اتزانها وصفاء ذهنها مهما احتست من مشروبات، ولم تكن تدرى أنها وهى تفعل ذلك، إنما كانت تدرب نفسها على ما يدرب أعتى الجواسيس أنفسهم عليه، أن يشربوا مع فرائسهم دون أن يفقوا الوعى ولولثانية وحدة تكون كفيلة تماماً بالإطاحة برأس أكثرهم حذراً !

وفى اليوم التالى كتبت تقريرا إلى أرموند تقول فيه:

« .... إن الألمان يستعدون للزحف عبر أسبانيا فى طريقهم إلى جبل طارق، لم يتحدد الوقت بعد،لكن الجيش الألمانى هنا يستعد للرحلة فعلاً!! »

كانت المعلومات بالغة الأهمية بالنسبة لمجموعة «أنتراليه» فى المقاومة الفرنسية، وسرعان ما تسللت المعلومة إلى البريطانيين حتى يستعدوا لملاقاة الألمان... وكان المفروض أن تعود القطة إلى تولوز، لكن حصافتها دفعتها إلى البقاء فى بياترز حتى ينجلى الأمر تماما .. ذلك أنها أحست أن كل ما قاله لها الكولونيل الألمانى حقيقى وصادق، لكن شيئا لم يكن يدريه هو شخصيا وربما يلفت نظره، جعلها توقن أن ثمة جديد فى الأمر، فلقد كانت حركة القوات الألمانية التى تجمعت عند الحدود الأسبانية، تبطئ يوماً بعد آخر...

وعندما طال غيابها داخل القلق أرموند وأسرّ بقلقه إلى أركاد الذى بادر فأرسل إلى بياترز من يتحرى الأمر دون أن يحاول الاتصال بها خشية أن تكون متبوعه أو مراقبة، وسافر الرسول، وكانت فتاة فى العشرين من عمرها أمدوها بصورة بالغة الدقة للقطة، إلى بياترز ... مكثت هناك ليومين عادت تقول بعدهما:

«هذه السيدة، إما أنها مجنونة أو بلهاء!»

هتف أرموند فى قلق:

«ماذا وجدت بالله عليك!»

«وجدت سيدة جميلة تحيا حياتها بشكل طبيعى للغاية، تبدو دائما فى

غاية المرح، تجلس غالبا مع كولونيل ألمانى يرتدى ملابس سلاح الطيران، ولا تصنع شيئا آخر سوى التمتع بحياتها!»

تبادل أرموند مع أركاد النظرات، ولم يتفوه أحدهما بكلمة، فلقد أدركا أن هناك ما أبقى القطة فى بياترز . . فراحا ينتظران على أحر من الجمر.!

***

عندما قدمت ميشلينى كاريه إلى المحاكمة فى أواخر عام ١٩٤٨، وقف الكولونيل مارسيل أركاد، فى ساحة المحكمة يدلى بشهادته، قال:

«حقا، لقد أمدتنا ميشلينى بأنباء كان لها تأثير إيجابى بالنسبة لنا وللحلفاء!»

أما أرموند فلقد فوجئ ذات يوم بأنها تقف أمامه فى مخبئه . . كانت المفاجأة سعيدة، ارتمى كل منهما فى أحضان الآخر، وراحا يدوران حول نفسيهما وكأنهما امتلكا الدنيا . . وكانت القطة تحمل خبراً كالقنبلة . . . فلقد عدل الألمان عن اختراق أسبانيا للوصول إلى جبل طارق! ولقد كتبت فى مذكراتها عن تلك الفترة تقول:

«......... كم أنا سعيدة بما حققت للمقاومة، وكم أحب أرموند.. لقد أصبحت أدلله بكلمه «توتو» وإذا ما طلب منى شيئا هتفت: «تحت أمرك جنرال!»... ولم لا، ألا يستحق أرموند أن يكون جنرالا بعد كل الذى حققناه . . لقد كنت أشعر وأنا أراقصه أن النصر آت، وأنه فى متناول يدى، كانت الحياة بجوار هذا الفدائى متعة، فلقد أعطى كل وقته وجهده وذكاءه للمقاومة الفرنسية، فراح يحرز النصر تلو النصر، وكنت معه، أذوق حلاوة الحرية القريبة!»

وهكذا أصبحت جماعة «أنتراليه» تعمل فى جميع أنحاء فرنسا، فى كل المدن والقرى، فى الحقول والمزارع والمصانع والمتاجر والمحلات، انتشرت الجماعة، وأصبح لها كيانها الذى يتحدث عنه الجميع، ووصل الأمر إلى حد أن أطلق عليها البريطانيون، اسما خاصا بهم، هو «فالينتى» !!

فى ملفات المخابرات البريطانية كانت أسماء أعضاء الجماعه، وكل معلومة خاصة بأى منهم، موجودة ومدونة ومدعمة بالوثائق أيضا... فلقد عرف البريطانيون مثلا كل شئ عن الكولونيل «رومان جيرينا سويسكى» واسمه الكودى «أرموند» وعن الأرمله «ميشلينى كاريه» واسمها الكودى القطة ... وعن الكولونيل مارسيل أركاد ... و ... وعشرات من الرجال والشباب والفتيات والنساء... وكان هناك اسم بالغ الأهميه قد انضم إلى جماعة «أنتراليه» أو «فالينتى»... هو الكونت «بيير دو ذوميكورت»، هو السياسى الأرستقراطى الفرنسى الذى أمد الجماعة بالكثير من المال الذى كانت تحتاج إليه، والذى لعب دوراً هاماً فى توجيه عملياتها أيضاً!!

فى تلك الفترة كان نشاط الجماعة عظيماً، وضعت الترتيبات مع البريطانيين بالنسبة للنقط التى تصلح لإسقاط المؤن والذخيرة إلى رجال المقاومة ... و وضعت خطط لتهريب الأسلحة، سواء عن طريق البحر أو عبر الحدود الأسبانية ... وقامت الجماعة بتهريب العديد من الشخصيات التى كان بقاؤها فى فرنسا مستحيلا تحت نيران الاحتلال الألمانى .. وأخفت العشرات من الذين هربوا من معسكرات الاعتقال .. وكلما ازداد النشاط ازدادت حاجة الجماعة إلى متطوعين جدد ... خاصة بعد أن

انتقل أرموند إلى باريس ومعه القطة حيث مركز المقاومة الرئيسى ٠٠٠ وذات يوم كلفت الجماعة ميشليني بالبحث عن شخص تسند إليه مهام طفيفة لا تتعدى الجلوس فى المقاهى والاستماع إلى الجنود الضباط الألمان وإقامه علاقات صداقه تتيح لهم معرفة المزيد من تحركات الجيش الألمانى٠٠٠

ولم يكن الأمر صعبا على أى حال ٠٠٠ فسرعان ما عثرت القطة على فتاة تدعى «رينيه بورنى »، كانت الفتاة جميله هادئة، ذكية ٠٠٠ وكانت أيضا متحمسة، ولما كانت رينيه بورنى فى حاجة منذ اليوم الأول إلى اسم حركى غير اسمها الحقيقى، فلقد أطلقوا عليها اسم «فيوليت».

وبدأت فيوليت العمل بهمة وحماس... وكان عملها متصلا اتصالا مباشراً بأرموند... ولاحظت القطة أن الفتاة كلما أحرزت نجاحاً ازدادت قربامن حبيبها، وبدأت الغيرة تفتك بها، وبدأ ارموند يسخر منها فى لطف محاولاً إبعاد تلك الأفكار عن ذهنها ٠٠٠ لكن القطة كانت واثقة كل الثقة أن حبيبها قد وقع فى غرام «رينيه بورنى » أو «فيوليت »!

ذات يوم هتف بها:

«ميشلينى،لقد أصابك مس دون شك!»

«لم لا تعترف أنك تحبها!»

«ولكنك تعرفين أنى أحبك أنت !»

«فلم لا ترسل بها إلى الأقاليم !»

«لأننا محتاجون هنا إليها!»

«سوف أجد لك غيرها!»

هنا زمجر أرموند قائلا :

«لن أسمح لغيرتك العمياء أن تتدخل فى عملنا!»

صرخت ملتاعه:

«ارموند ... ليس الأمر كما تظن!»

التفت نحوها دهشا وهو يتساءل:

«ماذاتعنين بالله عليك!»

«إنى أشعر وكأن كارثه تنتظرنا فيما هو قادم من أيام!!»

***

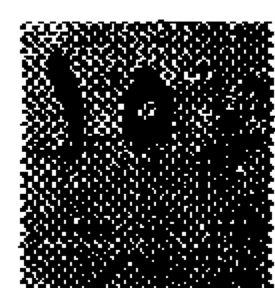
فيما بعد أكد ارموند، أو «رومان جيرينا سويسكى» أن هذا قد حدث، وأن ميشلينى كانت تتوقع كارثة، وأنها بالفعل قالت إن «فيوليت» ستكون سببا فى وقوع هذه الكارثة!! فيما بعد قال هذا حقاً، لكنه اعترف أنه لم يلق بالاً إلى ما كانت ميشلينى تقوله، وأنه قال لها:

«إن الغيرة استبدت بك وأعمت عينيك!»

ولكن ظن القطة، تحقق، وبأسرع مما تصورت هى نفسها!!

***

صدرت الأوامر إلى فيوليت أن تتصيد أخبار فرقة من فرق الجيش الألمانى التى كانت تستعد للرحيل .. وكعادتها راحت تتجول فى المقاهى وتنتقل من مقهى إلى آخر... حتى إذا كان يوم جلست فيه على مقهى بالقرب من محطة شمال ... التقت هناك بصف ضابط المانى أراد أن يقترب منها فشجعته ... راحا يتبادلان الحديث، وراحت هى تزحف إلى هدفها فى حذر... كانت تسأله أسئلة تبدو فى ظاهرها بريئة، وكان الضابط الصف، وقد أغراه جمالها، يجيب في إسهاب ...



لم تشعر فيوليت أن حديثها مع ضابط الألمانى كان مثار اهتمام جارهما الجالس على المائدة المجاورة والذى كان منهمكا فى احتساء القهوة السوداء وقراءة الجريدة ... وعندما انتهى لقاؤها بالجندى الألمانى غادرت المقهى ولم تنتبه إلى أن جارها العزيز كان يتبعها عن بعد ...

وبطبيعة الحال فلقد وضعت فيوليت تحت المراقبة منذ ذلك اليوم، واكتشفت الجاسوسية المضادة الألمانية، والتى كانت تحت إمرة الدميرال ويلهلم كاناريس أن فيوليت تسكن فى غرفة واحدة مع ميشلينى، وأنها كانت تلتقى بارموند ... كانت نبوءة القطة قد تحققت تماماً، واكتشف الألمان أن ارموند يقود جماعة من رجال المقاومة... تركوا لهم الحبل على الغارب لأيام أيقنوا بعدها أنهم لن يعرفوا أكثر مما عرفوا، فقرروا القبض عليهم!

***

فى الساعة الخامسة والنصف من صباح يوم الثامن عشر من نوفمبر عام ١٩٤١ ألقى القبض على أرموند وفيوليت!

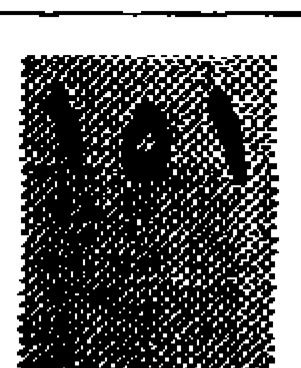
وبعد ساعات قليلة سقطت ميشلينى فألقي بها فى زنزانة بالسجن الحربى... وقالت القطة وهى تدلف إلى الزنزانة الباردة فى زمن الشقاء القارس:

«لقد كنت أعلم... كنت موقنة!»

صاحت ميشلينى وهى فى قفص الاتهام صارخه:

«هل يستطيع أحدكم أن يتخيل الرعب الذى يصيب الإنسان وهو جالس فى انتظار جلاديه ؟!»

لقد عاشت القطة يوماً عصيبا بكل ما تحمل الكلمة من معنى ...



ومهما حاولت التخلص من تلك الأفكار التى راحت تهاجمها إلا أن محاولاتها فشلت وأخذت قصص التعذيب التى سمعت عنها تلح على خيالها فراحت ترتجف ...

جلست فى الزنزانة وقد أصابها السكون والصمت بالذهول ... ولم تكن تعرف ما الذى حدث للآخرين ... هل قبضوا على ارموند أم أنه لا يزال طليقا ... وماذا عن اركاد الكونت «دوفوميكورت » ... وحتى ماذا عن فيوليت، هل نجت أم أنها وقعت هى الأخرى فى قبضتهم.

مضى النهار دون أن يزورها أحد أو يفتح عليها باب الزنزانة حارس... وجاء الليل فكادت تجن، راحت تضرب أخماساً فى أسداس فماذا هم فاعلون بها!

فى منتصف الليل كان الظلام دامساً، وكانت القطة قابعة فيما بين اليقظة والنوم، عندما غمر الزنزانة ضوء باهر ... وفتح الباب فى قرقعة عالية، انتفضت، ونفضت عن عينيها آثار النوم، ونظرت نحو الباب فإذا ضابط ألمانى شاب، يقف أمامها باسماً!

وأدركت القطة، أن الموت آت لا ريب فيه!



كانت هذه الليلة أشد الليالى إثارة فى حياة ميشلينى كاريه أو «القطة» . . . فبعد أن فتح الباب ظل هذا الذى ظنته ضابطا يقف أمامها دون حراك لدقائق ثم ما لبث أن استند إلى حافة الباب وأشعل سيجارة، ازداد توترها فهبت واقفة وهى تصيح:

«سيدى . . . لماذا ألقيتم القبض علىّ ؟!»

ولما لم تجد رداً على سؤالها، عادت فألقت بنفسها فوق المقعد فى يأس. . . وهنا جاءها صوت الضابط:

«هل عشت حقا فى الجزائر لسنوات ؟!»

كانت فرنسيته ركيكة لكنها كانت مفهومة!

«نعم. . . عشت فى الجزائر!»

«ولكن باريس مدينة رائعة!»

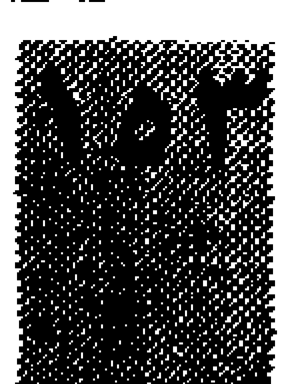
راحت ترتجف رعبا دون أن ترد عليه، فقال:

«ليس هناك ما يخيف على أى حال!»

استفزها بهدوئه فكانت تصرخ، فابتسم مشيراً إلى شعرها وهو يقول:

«هل تعرفين أنك تشبهين جان دارك!»

وفى يوميتها كتبت بعد ذلك:



«إن أكثر ما أثار الفزع فى نفسها فى تلك الليلة هو ذلك الهدوء الذى كان يتميز به هذا الرجل ... فهو لم يسألنى عن نشاطى فى حركة المقاومة، ولم يتحث أبدا عما صنعته، ولم يوجه إلى أى اتهام ... بل راح يحدثنى عن باريس وفنادقها ومقاهيها والحياة فيها!»
وفجأة، وكانت ساعة قد مضت فى مثل هذه الثرثرة، اعتدل فى وقفته وهو يقول:

«إن هذا المكان ليس مريحا، ألا ننتقل إلى مكان آخر؟!»
عندما اختفى الرجل بعد ذلك أدركت ميشلينى كاريه للمرة الثانية، أن الموت آت لا ريب فيه ... ذلك أنها أدركت أنهم سوف يقودونها حتما إلى فرقة ضرب النار، وعندما أطفئت الأنوار، وساد الظلام من جديد، انبعثت من مكان خفى موسيقى خافتة تحمل إليها ألحان موزارت!

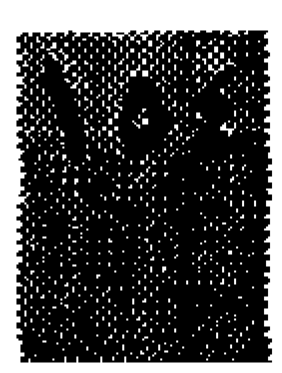
... ...

... ...

لم تكن القطة تعلم أنها دخلت إلى معصرة الأعصاب بمثل هذا السلوك من الرجل الذى لم يكن ضابطا بل كان يرتدى ملابس عريف ... لم تكن تعلم أن بقاءها طوال اليوم دون أن يحدثها أحد، ثم ذلك الحديث الناعم عن باريس وملاهيها ومقاهيها، إنما هو نوع من الضغط على أعصابها المتوترة ... ولقد ظل الضغط مستمرا بطبيعه الحال بعد انصراف العريف وانبعاث موسيقى موزارت من حيث لا تدرى ...

ثم ...

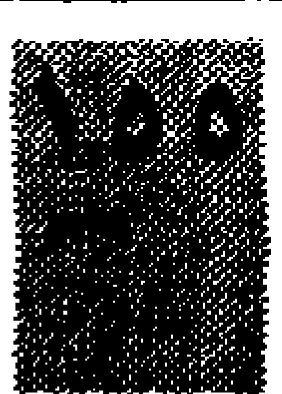
ثم كان لابد وأن يزداد الضغط أكثر وأكثر عندما فتح الباب مرة أخرى



وأضيئت الأنوار ورأت أمامها عند الباب حرساً مسلحاً صارمي الوجوه في انتظارها... لم يكن من الممكن لأي مخلوق مكانها إلا أن يظن أنه بعد كل هذا مساق إلى فرقة ضرب النار .. ظهر رقيب صخري الوجه عند الباب ثم أومأ إليها دون أن ينطق بكلمة ... ولم تكن تملك سوى الطاعة فنهضت وتبعته ... سار أمامها وسارت هي ومن حولها رجال الحرس تدق أقدامهم الأرض خطوات منتظمة، تحولت القطة إلى شئ بلا إرادة، راحت تقطع خلف الرقيب ممرات خاوية خالية ... تخرج من باب لتدخل بابا آخر دون أن تدرى من أين جاءت وإلى أين تمضي ... في أحد المكاتب وقع الرقيب ورقة ثم قادها إلى حيث باب كان مغلقا، ما أن فتح الباب، حتى أحست وكأنها انتقلت من مكان إلى مكان، ومن دنيا إلى دنيا أخرى ... من زنزانة في السجن، إلى حيث غرفة مؤثثة فاخرة الرياش والستائر ... وفي الوسط كان العريف هناك ولكن ... ولكنه لم يكن يرتدى ملابس الجيش الألماني، لم يكن عريفا بأي معنى من المعاني ... ولقد كتبت القطة بعد ذلك تقول:

«... ... ... كم كان المشهد مثيراً، لقد رق قلبي بعنف كاد يقتلعه من مكانه، إلى شاب فرنسي ينتمي إلى الطبقة الأرستقراطية، كان يضع في يديه قفازات جميلة، وفوق رأسه بيريه بسكاي، وكان أيضا يبتسم في بساطة!»

كانت ميشليني كاريه قد نسيت تماما أنها لم تذق طعاماً منذ الأمس، ولقد أشار الشاب إلى حيث باب أدركت بعد أن تقدمت منه أنه يقود إلى حديقه غناء ... أمام الباب كان ثمة سيارة فرنسية بالغة الأناقة تحمل أرقام سيارات باريس ... تقدمها إلى حيث السيارة وفتح لها الباب



الخلفى فى رقه . . . تقدمت من السيارة فقال فى صوت هامس:

«دعى الستائر مسدلة على النوافذ، فهذا أجدى لنا!»

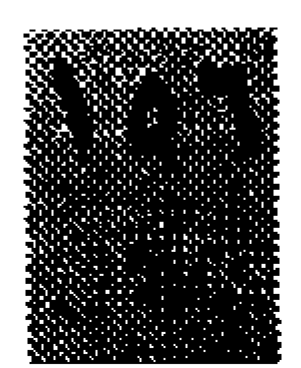
دلفت إلى السيارة وقد زلزلتها كلماته كما أوحت لها بمابث الرعب فى قلبها أكثر . . . أغلق الباب ثم جلس خلف عجلة القيادة وانطلق بالسيارة . . . سار بها فى ممرات حديقة غناء، حتى اذا وصل إلى بوابة القصر الخارجية، ونفذت السيارة منها، كانت الآن تسير فى قلب باريس.

ولم تستطع القطة بعد ذلك، حتى فى مذكراتها، أن تتذكر كم من الوقت سار بها فى شوارع باريس . . . لكن الذى أحسته يقينا، أنها كانت سجينة، تنظر من خلف الستائر المسدلة على نوافذ السيارة إلى حيث مدينة النور بناسها ومقاهيها وملاهيها والحياة الناعمة فيها....

كقطرات المياة تدق الصخر فى إصرار فتنحته ،كان هذا ما يحدث لها تماماً . . . حتى إذا ما غادرت السيارة باريس وانطلقت إلى الضواحى واقتربت من ذلك القصر المنيف «نيرون لافاييت» هتفت ميشلينى بينها وبين نفسها: إذن، فلسوف يعدموننى هنا ؟!

كان ميزون لافاييت هو اسم القصر الذى تملكه الممثلة الفرنسية الشهيرة «مارى بور»... وكانت القطة تعلم يقينا، أن السلطات الألمانية قد صادرت القصر يوم احتلت باريس . . . ولم يكن هناك عضو فى المقاومة الفرنسية، لا يعرف أن النازيين قد استعملوه مقراً لقيادة الجاسوسية المضادة . . . وكانوا يتندرون فيما بينهم وبين أنفسهم بتلك الجملة التى كتبها الشاعر الإيطالى دانتى على باب الجحيم فى كوميدياه الإلهية. وهى : «تخلّ عن الأمل يا من تدخل هذا المكان» !!

***



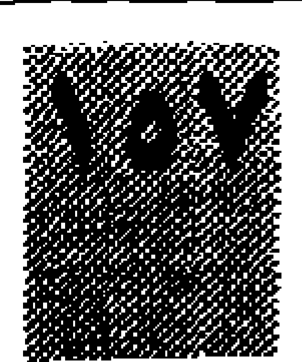
لابد لنا من الاعتراف أن الألمان كانوا على قدر كبير من الذكاء والحصافة، وأنهم، فى أقل من أربع وعشرين ساعة، استطاعوا أن يهدموا كل مقاومة لدى هذه السيدة الشابة التى كان انهيارها الداخلى يزداد مع كل خطوة تخطوها ... وكلما كانت المعاملة رقيقة، كان الضغط على الأعصاب أكثر عنفاً ... ولم يكن من المستطاع عندما دلفت إلى السيارة إلى حديقة قصر «ميزون لافاييت» أن تتصور القطة هذا الذى التقت به فى الداخل... وإذا كان القصر هو مقراً لقيادة الجاسوسية المضادة، فلابد أنه تحول إلى غرف للتعذيب بوسائل تجعل أكثر القلوب جسارة أقرب إلى الخوف.... لكنها وجدت فى الداخل شيئاً آخر... فما أن توقفت السيارة حتى هرع إليها أحد الخدم كى يفتح الباب وهو يحنى رأسه... قادها العريف الذى تحول إلى شاب باريسى ارستقراطى إلى حيث صالون فاخر الرياش... فى أدب جم أحنى لها رأسه وهو يقول:

« هل تسمح لى سيدتى بالتغيب لثوان ؟! »

ولم ينتظر منها إجابة، بل أعطاها ظهره وانصرف!

***

راحت ميشلينى تنظر إلى ما حولها فى ذهول... إذن فهذا هو قصر مارى بور الشهير، كانت متعبه منهكه فألقت بنفسها فوق مقعد بدا لها وثيراً أكثر مما ينبغى... تجولت بعينيها فى المكان وراحت تطالع اللوحات الثمينة المعلقة فوق الحيطان، والسجاد الفاخروالرياش والتحف ... لم يكن هناك حرس أو آلات تعذيب أو زبانيه، لم يكن هناك سوى الهدوء والسكون ورعب يصرخ فى أعماقها: متى تأتى النهاية... أدركت القطة أن هناك وسائل أخري للتعذيب غير الكي والجلد وخلع الأظافر وفقء العيون وتحطيم العضلات... أدركت أنها ضائعة لا محاله، وكان الخوف الآن، هو كل ما



تعرفه فى هذه الدنيا من مشاعر وأحاسيس!

سمعت حفيف خطوات فوق السجاد فالتفتت... وجدت العريف يقف بالباب قائلاً:

«يخيل إلى أن سيدتى لم تتناول عشاءها بعد؟!»

ذكرت القطة، وهى تنتفض واقفة، أنها لم تتناول طعاما منذ ليلة الأمس... سار الرجل أمامها فتبعته دونما كلمة... أحست وكان أوامر خفية تصدر إليها من داخلها ولم تكن تملك إلا أن تطيع... عبرت بهوا إلى حيث سبقها الرجل إلى باب مغلق... عند الباب وقف فى انتظارها حتى لحقت به، امتدت يداه كى يفتح الباب ويوسع لها الطريق، وعندما خطت إلى الداخل خطوة ترنحت وكادت تسقط لولا أن احتواها ذارع الرجل وهويقول فى رقة بالغة:

«هل تحتاج سيدتى لشئ!»

نظرت إليه وفى عينيها توسل صارخ، ابتسم قائلا :

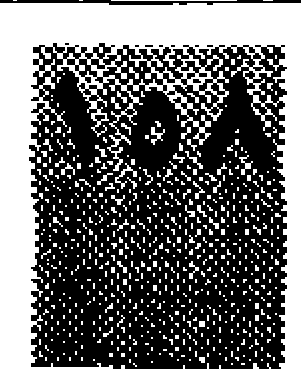
«إن قليلا من الشراب سوف يفيدك حتما!! »

***

كانت هذه هى غرفة المائدة الرئيسية فى القصر، وكانت الغرفة كلها مضاءة بالشموع، كما كانت المائدة جاهزة لاستقبال شخصين، سار بها الرجل إلى حيث مقعدها عند قمة المائدة، حمل المقعد موسعاً لها الطرق فجلست... سار حتى الناحية الأخرى وكان الخدم الذى وقفوا فى انتظار تلبية أى أمر ... قد بدأوا يقومون بالخدمة فعلا!

صاح كبير القضاه مسيودرابير أثناء محاكمتها سائلاً :

«ما الذى حدث فى تلك الليلة ؟!»



«سيدى... لك أن تتخيل ما الذى.... .... »

قاطعها القاضى وكان مستفزاً :

«قصى علينا القصة كما حدثت بالضبط! »

هتفت:

«هل تستطيع أن تتخيل كيف كنت بعد يوم كهذا الذى مر بى ؟! »

«أنا لا أسأل عن خيال . . . إننى أسألك عما حدث بالضبط! »

الغريب فى الأمر، والذى حير سلطات التحقيق مع ميشلينى كاريه، أنها كانت تحاول بالفعل أن تقص ما حدث ولكن عبثا... والأغرب منه، أنها عندما كتبت مذكراتها بعد ذلك لم تذكر كلمة عن تلك الليلة... وربما كان هذا هو السبب فى إصرار كبير القضاه على معرفة ما حدث، ذلك أن تلك الليلة كانت حداً فاصلاً بين عصرين، كانت تحمل فى أحشائها بذرة التحول من فدائية وبطلة ظلت طوال أربعة عشر شهراً تعطى وتبذل وتعرض حياتها للخطر والموت من أجل الوطن، إلي إنسان فاقد الحيلة فاقد الحس... إلي خائن... فكيف ؟!

عاد مسيو درابير كبير القضاه ليسأل:

«ماذا حدث فى تلك الليلة؟ »

قالت في صوت ضائع

«قال لى إن اسمه هو جوبيتشر؟! »

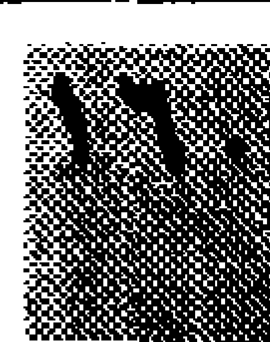
«هل كان عريفا بالفعل ؟! »

«لست أدرى! »

«ألم يلازمك فيما بعد فى كل خطواتك ؟! »

«نعم!»
«ألم تعرفي رتبته؟!»
«من أين لي أن أعرف ؟!»
«هل كان اسمه حقا هو هوجوبيتشر؟!»
«كيف يمكنني معرفة الحقيقة يا صاحب السعادة!»
«هل تناولتما العشاء معاً؟!»
«وهل كنت أستطيع أن أرفض ؟!»
«أريد إجابه محددة... هل تناولت معه العشاء في تلك الليله ؟!»
«كنت جائعة!»
«ألم تشعري بالخجل ؟!»
«قطعا شعرت بالخجل، لكني أحسست بالجوع أكثر!»
«هل نسيت أنك أرمله ضابط قتل في الحرب مع الألمان!»
صرخت:
«سعادة القاضي أنيّ لك أن تتصور ما حدث ؟!»
«ما الذي حدث بعد العشاء ؟!»
«... ... ...»
«أن المحكمة تريد أن تعرف بالضبط ما الذي حدث في تلك الليلة!»
ولزمت ميشليني كاريه الصمت بعد ذلك، لزمته ولم تعد قادرة على الحديث ... نظر إليها القضاه وكانت شاحبة الوجه حقاً، ولكن ... هل يستطيع فرنسي أن ينسى ما الذي فعلته هذه القطة ؟!

لقد حير الأمر القضاه حقاً كما حير الإدعاء، ولقد حاول الدفاع أن يجد



لها المبررات... ولكن، كانت هناك نقطه وقف الجميع حيالها حيرای ...
فكيف نسيت ميشليني كاريه في صباح اليوم التالي كل ما فعله النازيون اثناء احتلالهم لفرنسا، ولمده اربعة عشر شهراً، في ليله واحدة!

لقد كانت هذه السيدة الصغيرة السن بطلة... بطلة بكل ما تحمل الكلمة من معنى، كانت تصل الليل بالنهار وتعرض حياتها للخطر من أجل فرنسا، ومهما كان هذا الذي حدث في تلك الليلة، مهما كان.... فليس من السهل على العقل أن يتصور، أنها في صباح اليوم التالي، قادت المخابرات الألمانية إلى خمسة وثلاثين من أهم أعضاء المقاومة الفرنسية كي يلقوا مصيرهم المحتوم فيما بين الإعدام والاعتقال...

ألم تسأل عن حبيبها أرموند الذي كانت قد تعاهدت معه على الزواج بعد انتهاء الحرب؟!

ألم تفكر في مصيره وقد أدركت في الصباح التالي يقينا أنه وقع في قبضتهم؟!

لقد توقفت المحكمة طويلا، كما توقف الذين حققوا مع القطه، أمام تلك الليلة في حيرة ... لقد حدس الجميع وخمنوا فيما يمكن أن يكون قد حدث وقلبوا الأمر على كل وجوهه ووضعوا كل الاحتمالات الممكنة وغير الممكنة... ولم يكن شيئاً ما ذهبوا إليه كافياً لأن تفعل ميشليني ما فعلت.

ذلك أنها في صباح اليوم التالي استقلت سيارة مدنية إلى جوار هوجوبيتشر، وراحت السيارة تقطع شوارع باريس وكان السائق يطيع أوامرها وهي تدله على الطريق، حتى إذا ما توقفت السيارة أمام أحد البيوت، غادرتها القطة مع هوجو الذي كان يرتدي ملابس مدنية فلم يلفت

أنظار أحد... كما أن أحداً لم ينتبه إلى سيارتين أخريين توقفتا غير بعيد وهبط منهما رجال مدنيون تفرقوا فى المكان بشكل طبيعى ...

صعدت القطة إلى الدور العلوى وتوقفت عند باب دقت عليه تلك الدقات المتفق عليها ... وسرعان ما فتح الباب وكان هناك روتشينى وفرانك الذين استقبلاهما فى ترحاب ولهفه متسائلين عما حدث لارموند ... غير أنهما توقفا فى لحظه وهما يحملقان فى هوجو بتساؤل فقالت لهما:

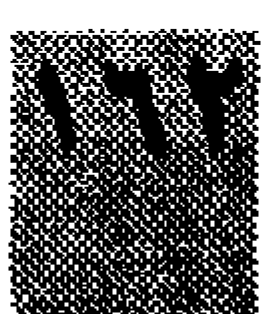
«لا عليكما... أنتما لا تعرفانه، إنه معنا!»

راحت تدير معها حواراً حول أرموند وكيف قبض عليه... وتناثرت على أسماع هوجو معلومات بالغة الأهمية عن المقاومة... حتى إذا أحست القطة أنه سمع ما أشبع رغباته، التفتت إليه قائلة:

«انزل أنت وأدر موتور السيارة حتى لا نضيع وقتا!»

غادرها هوجو وعادت هي لتدبير الحوار مع اثنين من أبرز رجال المقاومة الفرنسية، وعندما دق الباب حسب الإشارة المتفق عليها نهضت إليه وفتحته، وكان هناك عدد لا بأس به من الرجال المسلحين، وكانوا يصوبون إلى الجميع فوهات مسدساتهم، وجاءهم صوت أمر يقول:

«ارفعوا أيديكم!!»

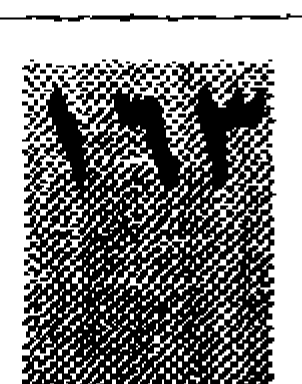


٤

بالقطع لن يختلف اثنان على ما فعلته ميشلينى كاريه فى ذلك اليوم بالتحديد، أمر غاية فى البشاعة والغرابة معاً... وعلى كل، فلقد حدث ما حدث، وفى خلال ثماني ساعات لا تزيد، كانت السلطات الألمانية قد ألقت القبض على خمسة وثلاثين رجلاً وامرأة من أفضل أعضاء المقاومة الفرنسية.. لقد حدث ما حدث حقا، لكن أحداً لم يستطع أن يفسر أو يعرف يقينا سبب ذلك التحول المفاجئ والمروع الذى حدث فى شخصية هذه السيدة... خاصة، وأنه فى خضم كل هذه الأحداث، كان لها موقف آخر غاية فى الغرابة، بل هو موقف غير مفهوم!... إنه ـ على الوجه الآخر ـ ذروة فى الوطنية!

فى ذلك المساء كان هوجو بيتشر راضيا عن نفسه كل الرضا... كانت المقاومة الفرنسية قد تلقت ضربة فاحمة وموجعة فى نفس الوقت، وزج خلف الأسوار بعدد هائل من قواد المقاومة الفرنسية، التى ساهمت ميشلينى كاريه فى بنائها ...

ولا أحد يدرى، ولم تكتب هى فى مذكراتها، شيئا عن أحاسيسها فى تلك الليلة وقد ألقت بأصدقائها وأحبابها خلف الأسوار...لا أحد يدرى كيف هدمت البناء الذى أنفقت الجهد والعرق كى تشارك فى بنائه... وإذا كان



هذا الأمر يبدو غير مفهوم بالمرة، فهو هناك أمر يبدو مذهلاً.
قال لها هوجو فى تلك الليلة:
«لقد أديت عملاً جيداً ميشلينى!»
نظرت إليه دون رد، فعاد إلى الحديث:
«غير أنه يبقى رجل أهم من كل الذين ألقينا ألقبض عليهم!»
«من هو هذا الرجل ؟!»
«هل تعرفين شخصا باسم الكولونيل مارسى اركاد!»
هتفت مستنكرة:
«من هو اركاد هذا !»
«ألا تعرفينه ؟!»
كان صوته صارماً قاطعاً كحد السكين فارتجفت رعبا وهى تقول:
«قد أكون سمعت بهذا الاسم لكنى لا أعرف عنه شيئاً!»
كانت ابتسامته الآن قاتلة ومميتة، كان هذا هو الوجه الآخر للشاب الباريسى الأنيق ... وجه تقطر القسوة من كل ملامحه ... غمغم غير مصدق:
«هل أنت واثقة مما تقولين!»
هبت صارخة وقد فاض بها :
«لقد أرشدتك عن قوم كان من المستحيل أن تعرف عنهم شيئاً!»
«أعرف ذلك!»
همت بالحديث فأردفت:
«كما أنى أقدره حق قدره!»

«فماذا تريد منى أكثرمن ذلك! »

«أركاد! »

«ولكنى لا أعرف عنه شيئاً! »

«كيف يتأتى للقطة ألا تعرف مكان أركاد ؟!»

«هذه هى الحقيقة! »

ولزم هوجو فيتشر الصمت، وراح يحدجها بنظرات باردة، ألقت بالرعب إلى قلبها!

... ...

... ...

قالت ميشلينى فى المحكمة إنها كانت تعرف بالقطع أين يقيم مارسيل اركاد، لكنها أصرت على موقفها، ورفضت كل إغراء، وقاومت كل ضغط، ولم تفش للألمان بمكان إقامته!

سألتها المحكمة:

«ولم اركاد بالذات وقد وشيت بخمسة وثلاثين عضوا آخرين! »

«إن أحداً منا لا يستطيع أن يبنى حركة مقاومه من جديد! »

«ماذا تقصدين! »

صرخت ملتاعه:

«كان الكولونيل مارسيل أركاد هو الذى وضع الأسس الأولى لجماعتنا، وكانت لديه خبره كافية لكى يبنى جماعة أخرى ... ولهذا لم أش به! »

وعندما جاء الكولونيل مارسيل أركاد كمى يدلى بشهادته أمام المحكمة قال:

«نعم ... كانت ميشليني تعرف مكان إقامتي. لكنها لم تش بي!»

«كيف عرفت ؟!»

«لأنني لم أغير مكان إقامتي، ولم أترك مخبئي!»

«ألم تفكر أن مثل هذه الحملة كان من الممكن أن تطالك!»

«نعم فكرت في هذا، ولكني لم أفكر أن ميشليني سوف تشي بي!»

... ...

... ...

أطال هوجو النظر إلى القطة في صمت، وعندما أخذ منها الرعب كل مأخذ صاحت :

«حسن ... إنك تريد واحداً من الرؤوس الكبيرة!»

«إني أريد اركاد ميشليني!»

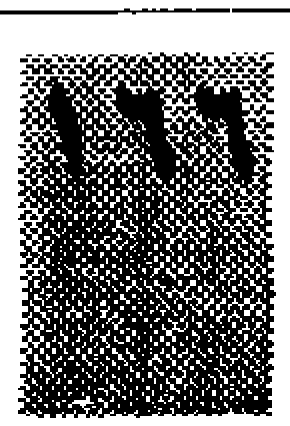
«الذي أعرفه أهم من اركاد هذا بالقطع!»

«من هو ؟!»

«الكونت بيير فو ميكورت!»

اعتدل هوجو في جلسته وقد توترت أعصابه ... أخذت القطة ترقبه وقد استغرق في التفكير طويلا، أدركت ان شيئا ما ألم بهذا الرجل الذي استطاع أن يحطم أعصابها، بل يحطم كل رغبه لديها في المقاومة ... انتظرت منه أن يعود إلى الحديث لكنه لم يفعل!

ولابد أنه اقتنع أخيراً أنها لا تعرف مكان أركاد ... فلقد أطلق سراحها في تلك الليلة كي تعود إلى بيتها ومقر قيادتها وسط رجال المقاومة ... كانت الضربة سريعة وقاصمة فلم يعرف أحد شيئا عما حدث، وكان



طبيعياً أن تتظاهر ميشليني بأنها لا تعرف شيئاً، فعادت إلى علاقتها مع رجال المقاومه، هكذا طلب منها هوجو فيتشر، وهكذا كانت بدايه خطته الجهنمية !!

«ماذا تريد مني بالضبط ؟!»

هكذا سألت هوجو الذى قال:

«لا شئ أكثر من إعادة تنظيم المقاومة من جديد!»

حملقت فيه ذاهله فلقد كانت فكرته جهنمية بكل ما تحمل الكلمة من معنى ... كان يريد عن طريقها أن يقضى على كل رجال ونساء المقاومة الفرنسية ... والغريب فى الأمر، أن القطة قامت بدورها على أكمل وجه ... وخلال شهرين كاملين، أعادت ترتيب شتات أعضاء الجماعة من جديد، وكانوا جميعاً يتلهفون على تنفيذ أى أمر تصدره إليهم القطة بعد القبض على كل رؤوس الجماعه وكان أولهم أرموند ... كانت تجتمع بالرجال والنساء وتضع لهم الخطط كي ينفذوها ... وطوال يومها كانت تعمل بهمة وحماس ... حتى إذا جن الليل تسللت إلى قصر مارى بور كى تقدم لهوجو تقريراً وافيا عن كل أوجه نشاطها !

ذات ليله قالت له:

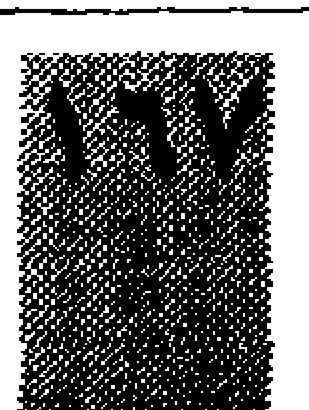
«إن العقبه التى تقف أمامنا هى كيفيه الاتصال بالإنجليز!»

كعادته لم يرد، وإنما راح يحدجها بنظراته الباردة طلبا للمزيد، فهتفت:

«لا تنس أنك ألقيت القبض على كل ضباط الاتصال!»

ركن للتفكير قليلا ثم ابتسم ابتسامته الباردة تلك وهو يقول:

«ولم لا تقومين أنت بالمهمة!»



صرخت:

«مستحيل! »

« لماذا ! »

هبت واقفه وهى ترتجف:

«إن هذا هو الجنون بعينه! »

«ماسر عصبيتك تلك ؟! »

«لأن الانجليز قد يشكون فى أمرى من أول عملية! »

«هذا إذا كنت وحدك! »

صمتت ذاهله وهى تحملق فيه:

«ماالذى تقصده بحق الشيطان ؟! »

نهض إليها مربتا على وجنتها وكانت أصابعه باردة كالثلج فارتجفت. قال:

«إن لك تأثيراً قويا على كل أعضاء الجماعة! »

«أنا لم أنكر هذا! »

«فلماذا لا تقنعين الكونت بيير دو فويكورت بأن يقوم معك بالمهمة؟! »

تعلقت عيناها بوجهه فخالت أنها تقف أمام شيطان، عاد إلى الحديث مرة أخرى:

«إن وجود الكونت سوف يزيد من ثقه الانجليز بك! »

الآن أدركت القطة، لماذا لم يلق هوجو القبض على الكونت رغم وشايتها به ... لقد كان يضمر خطته إذن منذ البداية، ولم يكن غافلا عن أنه قبض

على كل ضابط الاتصال مع البريطانيين ... الآن فهمت ميشلينى أن شيئا ما لم يتم اعتباطاً، وأن كل ما كان يحدث، إنما حدث بناء على خطه وضعت من قبل، وأنها لم تكن سوى أداة يحركها هوجو فيتشر أينما يريد فتتحرك مغمضة العينين ... ولكن، هل تستطيع أن ترفض؟!

فى الليله التالية قال لها هوجو بعد أن قدمت له تقريرها عن النشاط الذى قامت به:

«إن لدى مفاجأة لك!»

«ألم تتفقى على موعد مع الكونت مساء الغد فى مقهى بام ـ بام ؟!»

« لقد أخبرتك بهذا!»

«وبالقطع فلسوف تقنعيه، كما ستقنعين باقى الرفاق، بأنه أصلح من يقوم بالمهمة معك!»

«لا أستطيع أن أجزم!»

«ولكنى أستطيع ذلك!»

هكذا قال فى برود فخالت أن كلماته أمر غير قابل للعصيان.

«ثم ماذا ؟!»

«لابد لشخص أن يحل محلك عندما تسافرين إلى انجلترا!»

«ومن تظن أنه يصلح للمهمة!»

«فيوليت!»

وشهقت ميشلينى وجحظت عيناها، وظلت تحملق فيه غير مصدقه ... لم تنبس ببنت شفة، كان الأمر فوق كل تصور حقاً ... تذكرت ذلك الإحساس الغامر الذى واتاها يوم وقع اختيارها على هذه الفتاة ...

تذكرت ما قالته لأرموند دون أن تفهم لم قالته وكيف قالته . . . جاءها صوت هوجو فيتشر وكأنه يأتي من بئر سحيق عميق:

«إن فيوليت تعمل لحسابنا قبل أن تلتقي بك !»

الآن عرفت وجه الحقيقة البشع !!

«نحن لم نقبض عليها!»

لو استطاعت لذبحت هذه الخائنة!

«عندما تعودين الليلة إلى البيت، ستجدينها في انتظارك!»

كنصل حاد انغرس في قلبها تلقت النبأ.

«وعليك في الغد، أن تقنعي باقي الرفاق بالتعاون معها أثناء غيابك!»

هل تستطيع أن تعصي أو ترفض ؟!

... ...

... ...

سألها القاضي: «لماذا لم تبلغي السلطات البريطانية فور وصولك إلى انجلترا وكنت بعيدا عن متناول يده ؟!»

صاحت:

«كيف وكنت قد خضت في الوحل حتى عنقي!»

وران السكون على المحكمه، فلقد كان ردها أبلغ من أن يناقش!

ولم يكن الأمر صعبا فيما بعد . . . أحست ميشليني ببلادة جعلتها مثل دمية تتحرك . . . التقت بالرفاق وبالكونت في مقهى بام ـ بام . . . كانت الأنباء قد وصلتهم بأن الألمان اكتشفوا الممرات السرية على الحدود الأسبانية وأصبح الخروج من فرنسا عن طريق أسبانيا محفوفاً بالمخاطر...

طلبت منهم أن يمهلوها أياماً حتى تجد طريقاً آخر للخروج. . بعد بضعه أيام عادت إليهم وقالت إنها جاهزة، وإن على الكونت أن يكون جاهزاً، وعندما سألها أحدهم وقد انتابه القلق عليها :

«هل أنت واثقه أنه ليست هناك مخاطر ؟!»

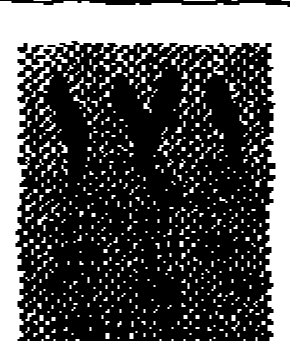
نظرت إليه فى استخفاف وهى تقول:

«إننا نتنفس المخاطر يا صديقى!»

على مستوى العلم البحت، كانت خطه هوجو فيتشر تكاد أن تكون مثاليه . . . فلقد نجح فى إرسال عميلة له، مع رجل لا يمكن أن تحوم حوله أيه شكوك، إلى وزاره الحرب البريطانية، حيث عكفت ميشلينى مع الإنجليز على وضع الخطط اللازمة للمقاومة فى فرنسا . . وكانت، بطبيعه الحال، ترسل رسائلها من انجلترا، ولتسع شهور كامله، إلى فيوليت التى تولت القيادة بعدها . . . وكانت فيوليت بدورها، توصل الرسائل إلى المقاومة، كما كانت تنقلها أيضا إلى هوجو!

لتسعه أشهر كامله، كانت القطه تعمل بلا انقطاع، وتعامل كبطلة فذة وشخصية مرموقة . . . غير أن شيئاً واحداً لم يفكر فيه هوجو . . .

هو أن الضربات التى تلقتها المقاومة، قد لفتت أنظار الانجليز . . . الذين، عندما ناقشوا الأمر، وجدوا كل السبل وقد سدت فى وجههم عدا سبيلاً واحداً، هو أن تكون ميشلينى هى مصدر التسرب الذى يوصل للألمان كل ما كانوا يدبرونه فى بريطانيا مع المقاومة الفرنسية . . . وهكذا وضعت ميشلينى فى لندن، مع فيوليت فى باريس، تحت رقابه صارمة، وملاحظة تدوم لأربع وعشرين ساعة كل يوم . . . حتى إذا كان اليوم السابع عشر



من يوليو عام ١٩٤٢، ألقى القبض على القطه فى بريطانيا، وظلت فى السجن حتى أطلت الحرب، ثم أعيدت إلى فرنسا لمحاكمتها!!

أثناء وجود القطة في السجن كتبت ميشلينى فى مذكراتها:

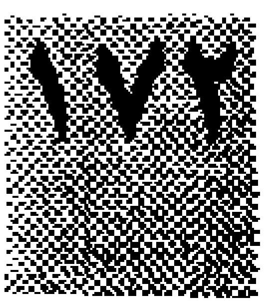
« .... كم عانيت، وكم تحملت ... وأنا لا أستطيع العثور على كلمات تناسب رغبتى فى التعبير عن أسفى لما ارتكبت، وحزنى اللانهائى، ومخاوفى التى مزقت صدرى ودمرت حياتى ... غير أنى لست وحدى التى وقعت فى الخطأ . ويوم يطلقون النار على،لن يذوق الناس النوم، وقد ينهض الأموات من رقادهم ليشاهدوا نهاية المهزلة!!»

فى يناير عام ١٩٤٩ صدر الحكم بإعدام ميشيلينى كاريه.

وعندما كان القاضى يستعد للنطق بالحكم، فقدت القطة لأول مرة أعصابها فصرخت:

«إننى أنتظر الحكم بلا خوف ... ولكنى لا أستطيع أن أتصور، أنه فى الوقت الذى تصدرون فيه الحكم بإعدامى، يسير هوجو فيتشر فى أمان فى شوارع هامبورج!»

بعد ذلك بشهور قليله، خفف رئيس الجمهورية الفرنسية الحكم الصادر ضدها إلى السجن مدى الحياة!!



الفهـــرس

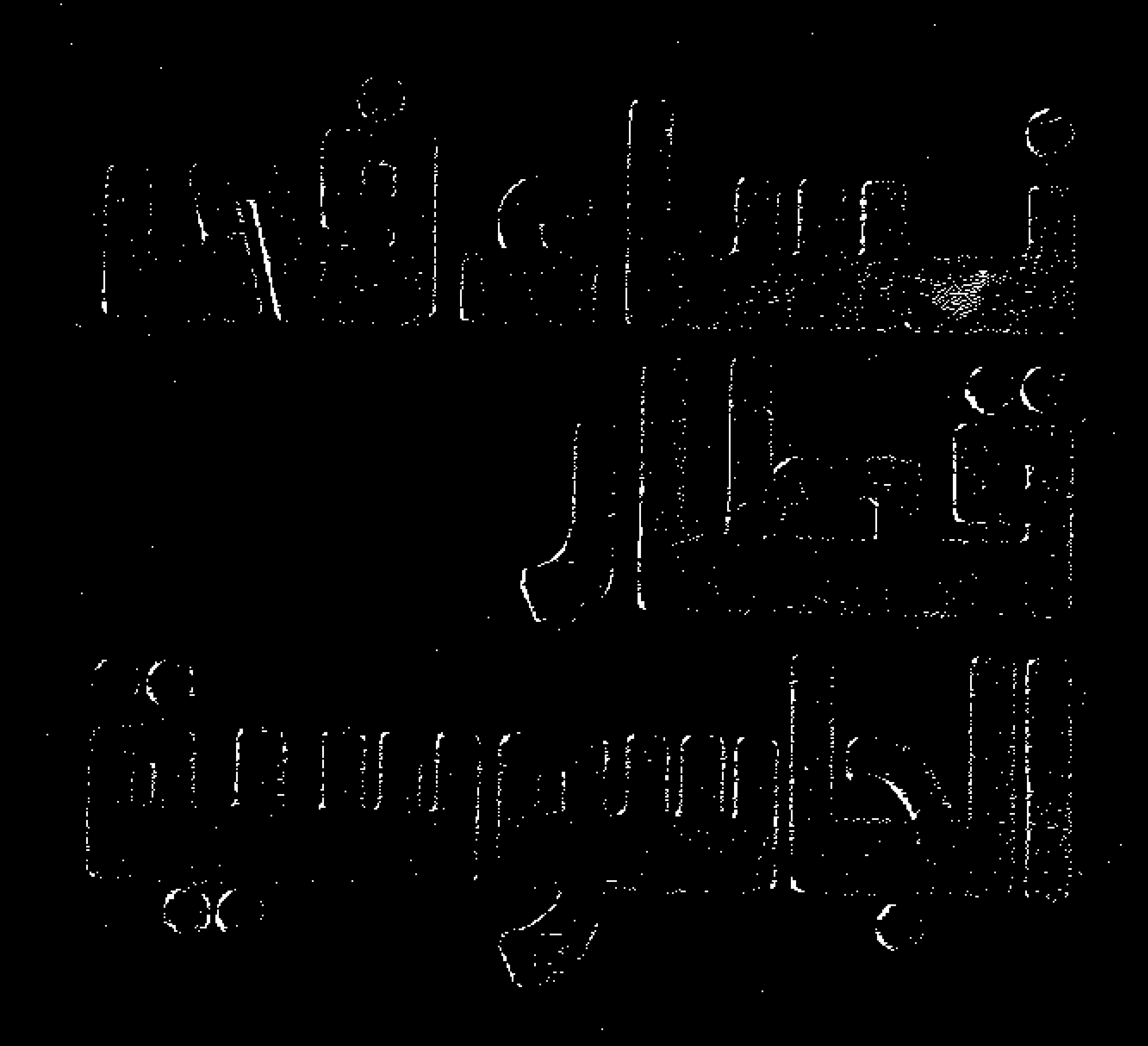
عربية للطباعة والنشر

٧، ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء المهندسين

تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ ـ ٣٠٣٦٠٩٨



الغلاف : محمد الصباغ



هذا هو الجزء الثانى من سلسلة « نساء فى قطار الجاسوسية » التى قدم لنا كاتبنا الكبير **صالح مرسى** جزءها الأول منذ سنوات . . وهو فى هذا الجزء لا يحاول ، أن يقدم لنا نماذج من جراسيس الجنس اللطيف فقط ، ولكن أن يجد الأجابة على اسئلة طالما حيرت الناس فى هذا النوع من البشر !أن صالح مرسى فى هذا الجزء يغوص فى أعماق المرأة اذا ما خاضت حقل التجسس فكيف ـ مثلا ـ تحترف امرأه أوتيت كل ما تبغيه امرأة من مال وجمال ، التجسس ؟! . . وكيف تتحول، وقد واتتها فرصة الهرب من شباك الخطر وشراكه ، إلى جاسوسة محترفة ، جاسوسة فوق العادة؟!

ليس هذا هو السؤال الوحيد ، فثمه قصص فى هذا الحقل الخطير ، تثير فى النفس الدهشة مع مزيد من التساؤلات . . فكيف من الممكن أن تتحول فدائية ، بطله ، تكاد تؤمن اذا عرفت حياتها انها تشكلت واستقرت . . . إلى خائنة فى ساعات معدودة، فى ليلة . . . مجرد ليله مرت بها ، فاذا البطلة تصبح خائنة ، جاسوسه تشى بأبناء وطنها وتدفع بهم إلى أيدى الاعداء ؟؟!

مدبولى الصغير